

the further adventures of

شيرلوك هولمز

لفافة الموتى

ديفيد ستيوارت ديفيز

ترجمة: عمر إبراهيم

كيان

Kayan

KAYAN PUBLISHING

شيرلوك هولمز

لفافة الموتى

المغامرات الجديدة لشيرلوك هولمز/ لفافة الموتي

رواية / ديفيد ستيوارت ديفز.

ترجمة : عمر إبراهيم.

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2021.

208 صفحة، 20 سم.

تدمك : 978-977-820-091-1

-1 القصص الأمريكية

أ- إبراهيم، عمر (مترجم)

ب- العنوان : 823

رقم الإيداع : 11429 / 2021

الطبعة الأولي : يونيو 2021.

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

This translation of THE FURTHER ADVENTURES OF SHERLOCK HOTMES – THE SCROLL OF THE DEAD, first Published in 2021, is published by arrangement with Titan Publishing Group Ltd

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني– الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

المغامرة الجديدة لشيرلوك هولمز

لفافة الموتى

ديفيد ستيوارت ديفيز

ترجمة

عمر إبراهيم

كلمة الراوي

لقد استطعت التحصل على تفاصيل العديد من الوقائع التي حدثت خلال هذا التحقيق المعقد فقط عندما أُغلقت القضية. ولمّا كانت هذه المعلومات بحوزتي، أعطيت لنفسي حرية أن أخلق منها حكاية درامية متماسكة ومترابطة أقدمها للقراء.

جون هـ. واطسون

مقدمة

إن للقدَر طرقا غريبة يصنع بها سلسلة من الأحداث التي لا تبدو –في البداية– ذات صلة ببعضها. ثم بعد التفكّر، يدرك المرء أن ثمة روابط خبيثة تصل حلقات تلك السلسلة الغامضة.

كان صديقي السيد شيرلوك هولمز شديد الذكاء، ليس فقط بسبب قدرته على الملاحظة، ولكن لقدرته على التنبؤ بمثل هذه الأمور. بالطبع هذه إحدى مهاراته كمُحقق، لكنه في قضية «لفافة الموتى» قد أخفق –في البدء– أن يلاحظ العلاقة التي تجمع سلسلة من الأحداث الغريبة، والتي قادتنا بدورها إلى واحدة من أصعب القضايا التي واجهناها على الإطلاق.

ولكي أروي القصة كاملة، عليّ أولا أن أشير إلى ملاحظاتي التي دونتها في فترة ما قبل حدوث جرائم القتل وسرقة اللفافة بما يقرب اثني عشر شهرا.

إن أول حلقة في سلسلتنا شُكِّلت في مطلع شهر مايو، بعد سنة من عودة هولمز من جولاته في الخارج، والتي كان قد قام بها بعد حادثة رايشنباخ. أتذكر ذلك الثلاثاء.. كان يوما مظلما وكئيبا. إنه أحد تلك الأيام التي تجعلك تعتقد أنه قد تم خداعك عندما رأيت شمس اليوم الفائت الساطعة، وأن الربيع لم يأت بعد. كنتُ في النادي ألعب البلياردو مع ثارستون لأغلب النهار. غادرتُ النادي الساعة الخامسة، وقتما كان النهار يسدل ستار الليل القاتم، متجها إلى شارع بيكر. عندما وصلت، صببتُ لنفسي كأسا مركزة من البراندي، محاولا أن أتناسى هزيمتي أمام ثارستون، ثم جلست أمام صديقي بجانب الموقد. كان هولمز يُقلب صفحات جريدة بعشوائية. وفجأة ألقى بها وهو يتنهد ثم خاطبني باندفاع:

«هل أنت مهتم لمرافقتي الليلة يا واطسون؟». تلألأت عيناه بخبث، ثم أكمل: «لدي موعد في كنسينغتون، وهناك سأتحدث مع الموتى».

«بالتأكيد يا صديقي العزيز». جاوبته بكل أريحية، وأنا أرتشف كأس البراندي وأمد رجليّ ناحية الموقد.

لاحظ هولمز تعبيري الخالي من أي عاطفة فانفجر في نوبةٍ من الضحك. ثم قال وهو يقهقه: «إنها إضافة كبيرة لا يمكن إنكارها. أحسنت يا واطسون، إنك تطور من قدرتك على الإخفاء».

«لدي مُعلم جيد».

رفع حاجبيه وكأنه قد تفاجأ.

أضفتُ: «ولكن، أرجِّح أنني أصبحت معتادا على تعبيراتك الشنيعة».

ابتسم رغم أنه بدا منزعجا، وفرك يديه قبل أن يقول:

«تعبيراتي الشنيعة.. لا.. أنا لا أقول غير الحقيقة».

«قلت إنك ستتحدث مع الموتى».

«إنها جلسة استحضار أرواح يا عزيزي».

«إنك حتما تمزح».

«بالطبع لا. لدي موعد مع السيد أوريا هوكشو، المستبصر والعالم الروحاني، الليلة في تمام الساعة التاسعة والنصف. وقد أكد لي أنه سيحاول أن يجعلني أتحدث مع عمتي العزيزة الراحلة صوفي. كما قال أيضا أنه بإمكاني أن أحضر صديقا إلى الجلسة».

«لم أدرِ إن كان لك عمة اسمها صوفي.. إن الأمر ليس سهلا كما يبدو».

«يا لذكائك!».

ابتسم هولمز وهو يُخرج ساعته من جيب معطفه.

قال: «ما تبقى من الوقت يكفي فقط للاستحمام والحلاقة. هل سترافقني إلى الجلسة؟».

***

مرّ بعض الوقت ونحن نتجول في شوارع لندن المظلمة داخل عربة. فسّر لي هولمز خلال تلك الجولة خبايا الجلسة التي كنا بصدد حضورها.

قال: «إنني أسدي خدمة لأخي مايكروفت. فأحد أعضاء فريق عمله، السير روبرت هايث، قد فقدَ ابنه في حادث قارب. كان الصبي قرة عين أبيه، وموته أثر كثيرا على السير روبرت. وكان قد بدأ يتأقلم مع خسارته الفادحة،

إلى أن تحدث معه المدعو هوكشو وادّعى أنه يستقبل رسائل من روح الصبي».

«يا للهراء!».

«هذا انطباعي أيضا، يا واطسون. لكن بالنسبة لأبٍ مكسور، فمثل هذا الادعاء هو طوق النجاة الذي سيتعلق به لا شعوريا. عندما يُصاب المرء بداء اليأس، يتشبث بالأحلام والآمال وينسى المنطق. من الواضح أن السيد أوريا هوكشو محتال لديه قدرة قوية على الإقناع».

«محتال؟».

«هذا ما يعتقده مايكروفت. إنه أحد المشعوذين الذين يسلبون الضعفاء والثكالى أموالهم في مقابل مسرحية دمى بلهاء. مايكروفت قلق من مدى تطور الأمر، لأن هايث مُطّلع على العديد من أسرار الحكومة. كما أن أخي حريص –بشكل شخصي- ألا يتم تضليل هايث أكثر من ذلك».

«وما دورك في هذا الأمر؟».

«سأخلع القناع عن صانع الأشباح هذا، حتى يُرى وجهه الحقيقي المحتال والمخادع».

«كيف؟».

«إنه أمر في غاية السهولة. وحسْب ما توصلتُ إليه من خلال أبحاثي، فإن هناك طرقا شتى تساعدنا على كشف مثل هؤلاء المحتالين. والحق يا واطسون أنها مغامرة تتطلب شجاعة. ولطالما استمتعت كثيرا بالخوض في ذلك العالم المظلم. لقد قادتني دراساتي إلى العديد من الطرق المتنوعة، منها -على سبيل المثال– زيارة للبروفيسور أبراهام جوردن، الخبير في لغات الهنود في أمريكا الشمالية. اتضح لي أنه كي أكشف المُحتال بطريقة مقنعة، فعليّ أن أفعل ذلك بينما هو يقوم بعمله المُشين أمام أنظار المخدوعين التعساء».

«هل سيحضر السير روبرت الليلة؟».

«بالطبع. مثل تلك العروض لا تقتصر على مجموعة واحدة فقط، فالنسور تجمع من الجيف ما استطاعت في جلسة واحدة، كي تختار منها ما شاءت.

وبالمناسبة، اسمي المُعلن في تلك الجلسة هو أمبروز تريلوني. وعمتي الحبيبة صوفي قد توفيت منذ أكثر من سنة. لا شك أنني سأستلم رسالة منها الليلة». قهقه هولمز في الظلام.

لم أشاركه حماسه، وهذا لأنني لم أومن بوجود مثل تلك الأرواح الطوّافة التي تتوق للتواصل مع عالمنا البشري. لكنني تعاطفت معهم.. فتلك الأرواح الحزينة الغارقة في غياهب اليأس والقنوط لفقدها أشخاصا أعزاء، تمد يدها خارقة الظلمة باحثة عن الراحة والعزاء. ويبدو أن هولمز لم يفكر في الضرر النفسي الذي ينجم عن الإطاحة بمثل هذه المعتقدات. إن العامل المشترك بينه وبين أولئك المشعوذين أنه كان مُنشغلا بسحره فقط. أما أنا، فتراجعتُ في مقعدي داخل العربة التي تموج بين الحين والآخر، ولم أستطع أن أفكر إلا في حبيبتي ماري وما عليّ بذله كي أسمع صوتها العذب مرة أخرى.

لم يمضِ الكثير حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا الطرق السريعة لكنسينغتون. وبينما أنا منشغل بالنظر إلى البيوت الأنيقة من نافذة العربة، قطع هولمز حبل أفكاري بقوله: «نعم، إن عمل الأشباح مُربح يا واطسون. إن السيد هوكشو يعيش عيشة الأغنياء».

توقفنا بعد لحظاتٍ أمام منزل مبنيّ على الطراز الجورجي يحمل اسم «نزل فرونتير» المكتوب على لوحة نحاسية مُعلقة على قائم البوابة. دفع هولمز للحوذي أجرته ثم رن جرس الباب. استقبلنا خادم أسود طويل القامة، ملامحه قبيحة، يرتدي بدلة لا تناسبه. تحدث معنا بصوتٍ رخيم منخفض، وكأن سيده قد حرَّم عليه أن يرفع صوته. أخذ معطفينا ثم أرشدنا إلى «الصومعة»، وهي غرفة كئيبة تقع في الجزء الخلفي من المنزل، تضيئها الشموع وحدها. وعندما دخلناها، استقبلنا رجل خمسيني هزيل ذو شعر رمليّ اللون، صافح يد هولمز وهو يقول بنغمة تفتقر النشاط: «أهلا سيد تريلوني».

أومأ هولمز برأسه.

«عمت مساءً، سيد هوكشو». رد هولمز مترددا، وانحنى برأسه قليلا وهو يتحدث.

ثم بدأ العرض..

«أنا سعيد للغاية لأن سكرتيري الخاص قد استطاع أن يضمكما إلى جلستنا. كانت الذبذبات تتراكم طوال اليوم، ولذا فإنني أشعر أننا سنجري بعض

الاتصالات الخاصة هذا المساء».

«أتمنى ذلك حقا». رد هولمز في تردد، ولهفة.

من فوق كتفَي صديقي، نظر إليّ هوكشو نظرة المتسائل. رأيت في عينيه الجشع البيِّن الذي أثار اشمئزازي. سأل: «وهذا يكون...؟».

وقبل أن أحظى بفرصة إجابته، رد هولمز بالنيابة عني: «هذا خادمي ورفيقي الدائم: هاميش». ابتسم لي هولمز ابتسامة رقيقة وهو يُكمل: «ولكنه لا يتحدث إلا قليلا».

وبكل احترامٍ، أومأتُ برأسي لهوكشو وكأنني أثبت حضوري، قبل أن أصوِّب نظري نحو هولمز الذي تجاهل نظراتي، وابتسم.

«دعوني أقدم لكم.. زائري الآخر». تردد هوكشو وهو يقول كلمة «زائر»، وكأنها لم تكن الكلمة المناسبة، ولكنه كان يدرك -على الجانب الآخر- أنه لو كان قد استخدم كلمة «زبون» لكان سيبدو غير لبق على الإطلاق.

أدار جسده وأشار نحو الظلال حيث يجلس رجل نحيف، مظهره متميز، شعره رمادي ناعم وشاربه متساوٍ كشارب رجل عسكري.

«أيها السير روبرت، أقدم لك السيد أمبروز تريلوني».

صافحه هولمز وخفض السير روبرت رأسه في تحية غريبة، وبمثل تلك الغرابة صافحني أيضا، وبدا أن هوكشو قد فشل في تقديمي له. كان من الواضح أن كوني مجرد خادم، لا زبون ثريّا، يجعلني شخصا بلا أهمية للوسيط الروحاني.

«إن لدينا آمالا عظيمة للوصول إلى ابن السير روبرت الليلة». بدا في وجه هوكشو بعض التعاطف، لكن عينيه ظلّتا باردتين وجامدتين.

«بالطبع». قال هولمز بنبرة هادئة وهو يُمعن النظر في السير روبرت. بدا الإحراج على وجه الرجل الذي تأثر بجملة هوكشو الأخيرة، وسيطر الألم على ملامحه الحساسة للحظات، ثم عاد إلى شروده.

كنتُ قد عرفت بعض المعلومات عن سيرة السير روبرت كرجل عسكري وسياسي، ولهذا أجد أنه من الغريب –وغير المنطقي أيضا– أن يقع رجل

شجاع ونبيل مثله في مصيدة ذلك المخلوق الجشع الذي يُدعى هوكشو.

أدركت حينها أن للحزن قوى مُفتِرة، تخِر لها الأدمغة.

وبينما خيَّم الصمت على المكان، فتح الباب فجأة، ودخلت امرأة ذات شعر أسود، ترتدي ثوبا أحمر مثل لون النبيذ، اتجهت نحو هوكشو وقالت: «إن آخر ضيف قد وصل يا عزيزي».

أشرق وجه الوسيط الروحاني ودار بجسده –مثلما فعلنا جميعا– لينظر نحو الغريب الذي وقف عند باب الغرفة. كان شابا لم يزل في العشرينيات من عمره، طويل القامة، ووجهه سمين بعض الشيء. كان يرتدي سترة سوداء من القطيفة ياقتها مثل قوس مرن كبير، وشعره الأشقر الناعم الطويل يتدفق من رأسه إلى ياقة سترته كنهرٍ.

قال هوكشو وكأنه في عرض مسرحي: «أيها السادة، دعوني أقدم لكم السيد سيباستيان ملموث».

ارتسمت ابتسامة ترحيب خفيفة على وجه الشاب الباهت. سمعتُ عن ملموث هذا من قبل. إنه معروف بفسقه البيِّن، ويزعم البعض أنه أحد أشد المعجبين بالمنحط أوسكار وايلد*. كما ترددت بعض الأقاويل عن ممارسته للفواحش، وهناك شائعات عن ممارسته للسحر الأسود أيضا إلى جانب أعمال شنيعة أخرى. لكن كل ما سمعته كانت أقاويل تتردد بين الناس في النادي الذي أذهب إليه في وقتٍ متأخرٍ من الليل، عندما يُعيدون عصيّ البلياردو إلى أماكنها، ويدخنون السيجار ويتجرّعون كؤوس البراندي.

أنظر إلى وجهه الآن، ناعم وحساس كأنه مصنوع من المرمر، يكاد يبدو جميلا رغم الضوء الخافت، فلا أجد فيه إلّا طموح الشباب، وبعض الضعف. وعلى الرغم من ذلك، فهناك شيء غامض ومُبهم شعرت به حينما رأيت شفتيه الغليظتين تبتسمان بسُخرية، شيء يشي بأنه قاسٍ ودائم الازدراء.

تبادلنا التحيات الروتينية، وعندما صافحته، شعرت بمدى برودة يده وضعفه. وعلى عكس هولمز، فأنا لا أحكم على الرجال من خلال نوع حزام المعطف أو شكل ركبة البنطال، بل إني أعرف الرجال بحدسي. ورغم أن ذلك قد يبدو غير منطقي لصديقي المفتون بالعلوم، لكنني من خلال حدسي هذا تيقنت من عدم ارتياحي للسيد سيباستيان ملموث ولا إعجابي بشخصيته، بل وشعرت أيضا أن الشر يقبع بداخله.

* أوسكار وايلد: كاتب مسرحي وروائي وشاعر أيرلندي، له العديد من الأعمال أشهرها «صورة دوريان جراي». اعتُقِل سنة 1895 بسبب كتاباته الصادمة، ولإقامته علاقة جنسية مع شاب.

جاءت السيدة هوكشو التي كانت ترتدي الثوب الأحمر كالنبيذ، ووضعت أسطوانة شمع على جهاز الغرامافون. لحظات وانبعثت منه موسيقى عذبة هادئة لموسيقار لم أعرفه. أُطفئت الشموع جميعها عدا واحدة، ثم دُعينا إلى أماكننا.

جلس الوسيط على رأس الطاولة، على كرسيّ مزخرف، غامق اللون، مُصمم على شكل عرش من القرون الوسطى. جلست زوجته بجانبه، وجلست أنا بجانبها، ثم جلس السير روبرت، ثم هولمز، ثم أخيرا جلس ملموث.

استمر الصمت لدقيقة كاملة لم ينبس خلالها أحد بكلمة. وظللنا صامتين مترقبين والظلمة الحالكة تحفنا من كل جانب.

ورغم أن شعلة صفراء واحدة كانت تُضيء الغرفة، إلا أنني استطعت رؤية وجوه الحاضرين الشاحبة التي يغلب عليها التوتر.

في النهاية، هدأت الموسيقى، ووجهت السيدة هوكشو لنا هذا الكلام:

«أيها السادة، إن زوجي العزيز سيقوم الليلة بمحاولة لكسر حواجز عالمنا الهشة، ليوصلنا بأرواح أحبائنا التي غادرت أجسادهم البشرية». تحدثت بنبرة رتيبة كما لو كانت تلقي على مسامعنا ترنيمة جنائزية مملة. والحق أنني بذلت جهدا ليس بهيِّن كي أحتوي سخطي على مثل هذا الهراء.

أكملت: «أعتقد أنني لست بحاجة للتأكيد أنه من الضروري أن تفعلوا بالضبط ما سأقول، لأنكم إن لم تفعلوا، ستبوء محاولاتنا في هذا الاجتماع بالفشل، وقد تعرضون حياة زوجي للخطر».

نظرت سريعا إلى هوكشو. بدا نائما: عيناه مُقفلتان، ورأسه يتدلى على صدره.

«والآن، ضعوا أيديكم على الطاولة –رجاءً– وأمسكوا بأيدي بعضكم بعضا». سكتت، بينما نطيع أوامرها في انسجام.

«أشكركم. علينا الآن أن ننتظر قدوم روح الدليل».

وبينما أنا جالس في الظلام المتهدج، أخذت أفكر في هذا الموقف السخيف الذي نحن فيه. إنه لمن المحزن أن البعض لا يقبل بانتصار الموت في النهاية، وإن استغلال بعض الشخصيات مثل هوكشو لضعف هؤلاء من أجل المال لهو الخسة بعينها.

مضت حوالي عشر دقائق ونحن جالسون بلا حركة، نستمع فقط إلى صوت أنفاس هوكشو الثقيلة. والحق أنني شعرت بجفنيّ ينغلقان، وبدأ جسدي يستسلم للنوم، إلى أن سمعت صوت عصفور يغرد ينبعث فجأة من الظلام. كان الصوت قريبا وواضحا لدرجة أنني تخيلت طائرا يطوف حول الطاولة في دوائر، مُحلقا بجناحيه بالقرب من وجوهنا. امتلأت الغرفة بالتغريدات والنسمات العليلة، وارتعشت الشمعة بقوة، قاذفة وجوه رفاقي بظلال مشتتة. بدا الأمر لي مخيفا.. وكأن وجوههم تنصهر، ثم تتغير ويُعاد تشكيلها من جديد.

الظلام والجو القاسي تلاعبا بمُخيلتي. أخذت نفسا عميقا وهززتُ رأسي كي أسقط عنها تلك التخيلات المزعجة التي لا تمت للواقع بصِلة.

وبعد مدة، تلاشت التغريدات، ثم ارتفع صوت الموسيقى الغريبة المتقطعة من الغرامافون مرة أخرى لكي تملأ الغرفة. ولأننا جميعا كنا نمسك بأيدي بعضنا بعضا، فلا بد أن قوة خفية هي التي قامت بتشغيل الجهاز.

«لقد بدأت الأرواح عملها». قالت السيدة هوكشو وكأنها تجيب عن السؤال الذي علق في فمي.

في ضوء الشمعة الضعيف، بدت وجوه الحاضرين صارمة، لكن وجه هولمز كان أكثر جمودا من الباقين، يصوب نظره نحو بقعة الظلام التي فشلت الشمعة الهزيلة في إضاءتها. كأنه كان ينتظر ظهور شيء ما من بين ثنايا الظلال المتقلبة، شيء ماديّ يمكن للمرء لمسه.

وبالفعل رأى شيئا.. رأيناه جميعا.

سمعنا صوت حفيف غريبا.

لمحت شرارة معدن في الظلام الدامس.

لحظات ولمحت الشرار مرة أخرى. ثم رأيت شيئا ما يطوف حول رأس هوكشو، اتضح أخيرا أنه بوق نحاسيّ، يتلألأ مثل السراب في الضوء الخافت.

نظرت مرة أخرى نحو هولمز.. ابتسامة ساخرة علت شفتيه في البداية، لكن بدا عليه الانزعاج، بعد ذلك، لِما رآه. نظرته القلقة أثارت الريبة في نفسي.

ترى هل كنت مخطئا حينما سخرت من هذه الأمور؟ هل باستطاعة الموتى حقا التحدث معنا نحن الأحياء؟

ارتعشت يداي من أثر تلك الأسئلة التي دارت في ذهني.

دار البوق في الهواء لبعض الوقت، وطاف حول رأس هوكشو بخفة، ثم شق طريقه نحو الظلام وتوارى عن الأنظار.

«إن الأرواح مستعدة للتحدث معنا». أخبرتنا السيدة هوكشو بنبرتها الهادئة الرتيبة.

تلك الجملة البسيطة، بثَّت في قلبي الفزع. وكل ما كنت متيقنا من علمه قبل دخولي تلك الغرفة تلاشى رويدا رويدا. لقد شهدت ظواهر لا يمكن تفسيرها، وعشت لفترة وجيزة في عالم خيالي. تساءلت: ماذا بعد؟

انتفض هوكشو الذي كان يجلس مثل تمثال حالم فجأة، وانفتحت عيناه عن آخرهما، وانتصب أنفه حتى كاد يلامس جبهته، وانبعثت من فمه زفرة، ثم قال بصوت عميق غريب: «ماذا تريدون مني؟».

ثم أجاب هوكشو السؤال بصوته المألوف: «هل أنت بلاك كلاود؟».

ساد الصمت للحظات قبل أن يرد: «نعم، أنا بلاك كلاود، زعيم قبيلة سانتي، وأحد مُحاربي قبيلة السو العظيمة*».

«هل ستكون دليلنا الروحاني الليلة؟».

استشعرتُ لحظة تردد في تلك المحادثة المروعة قبل أن ينبعث الصوت الغريب من فم هوكشو مرة أخرى. قال وشفتاه بالكاد تتحركان: «ثمة العديد من الأرواح السعيدة هنا، وليس لديهم أي رسائل يريدون نقلها لأناس في عالمكم».

«أرجوك يا بلاك كلاود، ساعدنا كما فعلت من قبل. إن أصدقاءنا في هذه الدائرة قد فقدوا أشخاصا أعزاء. إنهم يريدون الراحة.. يريدون الطمأنينة».

«تريدون من؟».

التفتت السيدة هوكشو إلى السير روبرت، وأعطته إشارة كي يتحدث.

---

* قبيلة السو: إحدى قبائل السكان الأصليين للولايات المتحدة الأمريكية الهنود الحمر.

بلهفةٍ غلبت ضبطه لنفسه، انحنى السير روبرت للأمام وقال مخاطبا هوكشو: «نايجل.. أود التحدث مع ابني نايجل».

ساد الصمت مرة أخرى. شعرت بتوتر غير عادي وأنا جالس مترقبا ما سيحدث. ثم فجأة سمعت صوتا هادئا ورقيقا مثل حفيف الأشجار، وكأن شخصا ما كان يهمس في الظلمات.

«نايجل؟» نادى السير روبرت بصوت يائس.

«أبي». جاء الرد بنبرة عالية، نبرة شاب صغير السن.

بدت ملامح الدهشة المفرطة على وجه شيرلوك هولمز. مد ذلك الوجه المندهش إلى الأمام، ثم نظر إلى البقعة المظلمة في الغرفة.

«نايجل.. هل هذا أنت يا بُني؟».

«نعم يا أبي».

أغمض السير روبرت عينيه. أحس بثقل في صدره من فرط المشاعر.

«لا تحزن عليّ يا أبي. أنا سعيد وفي أمان هنا». أخبره الصوت المخنث.

انهمرت الدموع من عين السير روبرت الذي عانى وهو يحاول التغلب على مشاعر الحزن التي تقبع بداخله.

«عليّ أن أذهب الآن يا أبي. تعال إلى هنا مرة أخرى وسنتحدث أكثر. وداعا».

تلاشى صوته، ثم عاد صوت الهمس مرة أخرى وسرعان ما تلاشى هو الآخر.

«نايجل! أرجوك لا تذهب.. ابق، أرجوك. لدي الكثير من الأسئلة لك. لا تذهب...».

«إنك لا تستطيع أن تستدعي الأرواح. يجب أن ترضى بأنك استطعت التحدث مع ابنك. وسوف يتسنى لك الحديث معه في المرات القادمة». كان هذا بلاك كلاود، يتحدث مرة أخرى.

وقبل أن يرد السير روبرت، قال هولمز للوسيط: «هل لي أن أسألك سؤالا يا بلاك كلاود؟».

عم المكان صمت مفاجئ للحظات، ثم جاء رد الوسيط بنفس نبرته الطنانة: «نعم يمكنك ذلك».

«أنت زعيم قبيلة السانتي يا بلاك كلاود، أليس كذلك؟».

«نعم».

تحدث بعدها هولمز بلغة لم أعهدها من قبل. كان صوته أجش وهو يلفظ الكلمات المتقطعة بهذه اللغة الغريبة، لكنه بدا متمكنا منها. كان -على ما أعتقد- يتحدث بلغة قبيلة السانتي.

وعندما انتهى، خيَّم الصمت على الغرفة لبعض الوقت، ثم ردد هولمز بعض الكلمات بتلك اللغة العجيبة قبل أن يعود للتحدث بالإنجليزية مجددا: «لا تخبرني أنك لا تقدر على فهم لغة قبيلتك». قالها بنبرة باردة.

لم يرد بلاك كلاود.

«ربما عليّ أن أترجم لك ما قلته. لقد دعوتك بمُحتالٍ عديم الضمير يا هوكشو. كما أنني ذكرت بالتفصيل الطرق التي استعنت بها لكي تنفذ حيَلك التافهة».

«أرجوك يا سيد تريلوني...». قاطعه السير روبرت.

«معذرة يا سيدي.. لكن، أليس من المُثير للشك أن زعيم قبيلة السانتي لا يفهم لغتهم، وهي اللغة التي تحدثت معه بها؟».

وبينما كان هولمز يتحدث، اصطدم رأس هوكشو بالطاولة وكأنه قد أغشي عليه.

«انظر ماذا فعلت!». صرخت السيدة هوكشو وهي تميل على زوجها.

«لا بد أنها وسيلة خداع أخرى!». قال هولمز وهو يقفز من مقعده، ثم أكمل: «دعونا نضيء الغرفة.. لقد لاحظت –منذ البداية– وجود مفتاح كهربائي». وبحركة خفيفة، أضاء هولمز الغرفة حتى سطعت وكأن الشمس تسكنها. لم يقدر أحد منا على الحركة من فرط الذهول، أما هولمز فقد اجتاز الطاولة، وسحب الستائر ليكشف عن الخادم الأسود الذي كان يختبئ بجسد مرتعد وراءها، وكان يحمل في يده البوق النحاسي الذي كنا قد رأيناه يسبح في الهواء. وكانت النوافذ الفرنسية مفتوحة من خلفه، فأغلقها هولمز كي يمنع الخادم من الهرب.

التفت صديقي ليواجهنا، وعلى وجهه بدت نظرة الانتصار.

قال: «أنا متأكد أنكم شعرتم بالنسمات الباردة في بداية الجلسة. بكل بساطة، كانت تنبعث من النوافذ المفتوحة. أما عن الهمْس، وجهاز الغرامافون الذي يعمل من تلقاء نفسه، والبوق الطائر، فصديقنا هنا –ببساطة– كان يخرج من خلف الستائر ليهمس، ويُشغّل الغرامافون، ويحمل البوق في يديه، وهو يرتدي قفازين أسودين، ويطوف به في الأماكن التي يُرى فيها البوق ولا يُرى فيها هو. أليس هذا صحيحا؟».

طأطأ الخادم رأسه، وتمتم بكلمة توحي بموافقته.

أكمل هولمز: «أما عن الباقي، فإن السيد هوكشو يمتلك موهبتين فقط ساعدتاه في مهمته، وهما تقليد الأصوات والتكلم البطنيّ.. أيها السير روبرت، عليك الاعتراف بأن الصوت الذي سمعته لا يشبه صوت ابنك الحقيقي بالضبط».

في ضوء الغرفة القوي، بدا وجه السير روبرت شاحبا من أثر الصدمة. قال: «ربما.. أردته أن يكون صوت نايجل».

«بالطبع، فهوى النفس هو أعظم حليف لهؤلاء المُحتالين».

«كيف تجرؤ!». صرخت السيدة هوكشو وهي تمسد رأس زوجها. ثم قالت: «أترى كيف أتعبته بسبب افتراءاتك هذه؟».

«متأكد أنه سيصير على ما يرام». قال هولمز وهو يُمسك بياقة سترة هوكشو. انتزعه من أحضان الطاولة، ووجه إليه ضربة قوية على ظهره، وإذ بشيء معدني صغير يطير من فم هوكشو.

قال هولمز: «لا بد وأنه قد ابتلع طيرا!».

التقطت الجهاز وتفحصته.

أكمَل: «يا له من جهاز خبيث! إنه مُسجل أصوات الطير، ومنه جاءت التغريدات التي سمعناها».

«أنت ذكي للغاية يا سيد تريلوني. لقد أسديت خدمة عظيمة لنا جميعا». قال سيباستيان ململوث بلطفٍ وهو يُشعل سيجاره الأسود الصغير.

انحنى هولمز بجسده قليلا، ثم التفت لهوكشو وزوجته اللذين -بعد فضيحتهما الشنيعة- جلسا محتضنين بعضهما في تعاسة بالغة.

وجّه هولمز لهما هذا الكلام: «والآن، أنصحكما أن تعيدا أية نقود أخذتماها من هذين السيدين. ويجب أن تكفا عن ممارسة عروضكما الزائفة إلى الأبد، لأنني إذا علمت يوما أن عروضكما ما زالت مستمرة، سأترك الأمر للشرطة. هل هذا مفهوم؟».

أومأ الاثنان برأسيهما في نفس اللحظة تقريبا.

ضحك ململوث وهو يقول: «لقد قدّمت أنت عرضا مميزا، يا سيد تريلوني، أحييك عليه».

ابتسم هولمز ابتسامة باردة، ثم قال: «عليّ القول إذن أن الخادعين قد خدعوا.. اسمي ليس أمبروز تريلوني، بل شيرلوك هولمز».

***

وبعد مرور أسبوع على يوم الجلسة، اكتشفنا أنها ليست النهاية، وأن ثمة مشهدا آخر كان يجب أن يُمثَّل في غرفة هولمز في شارع بيكر كي يكتمل العرض.

كان الوقت متأخرا.. وعادة ما يفكر المرء في هذا الوقت أن يصطحب كتابا جيدا ويرتاح على سريره.

وبذهنٍ صافٍ، قضى هولمز الليل كله في تدوين سلسلة من الملاحظات لدراسةٍ يقوم بها عن استخدامات التصوير في كشف الجرائم. ارتسمت على وجهه الهزيل ابتسامة رقيقة وهو غارق في مشغولياته.

كنت على وشك أن أذهب للنوم –بعد أن أودعه– لكن دق جرس الباب في الطابق السفلي.

«إن الوقت متأخر لزيارة شخصية. لا بد أنه عميل». قال هولمز، وكأنه قرأ أفكاري.

لحظات وسمعنا طرقا على باب غرفتنا، ثم دلف الزائر إلى الداخل.

كان هذا سيباستيان ملموث، مرتديا ملابس شبيهة بتلك التي كان يلبسها يوم الجلسة، ويحمل زجاجة شامبانيا كبيرة في يده.

دعاه هولمز للجلوس.

«أعتذر عن قدومي في ساعة متأخرة كهذه. لكنني كنت أنوي زيارتك منذ عدة أيام، يا سيد هولمز، وكانت هذه فرصتي الأولى التي أردت اغتنامها».

تراجع هولمز في مقعده، وأسند أنامله إلى شفتيه، ثم قال بكسلٍ: «لقد أثرت فضولي».

وكأنه يتجاهل وجودي، رفع ملموث زجاجة الشامبانيا في الهواء وكأنها جائزة كبرى، وقال لهولمز: «هذه هدية متواضعة لك يا سيد هولمز، عرفانا بجميلك». ثم وضع الزجاجة أمام قدم صديقي.

رفع هولمز حاجبيه في تساؤل.

«لكشفك حقيقة هوكشو الحقير.. كنت قد سمعت الكثير من الأقاويل الإيجابية عنه، لدرجةٍ جعلتني أتخيّل أنني قد تحصلت أخيرا على دليل قاطع كنت بحاجة إليه».

«شكرك ليس في محله يا سيد ملموث، فأنت لست فقيرا، ولم تفقد أحدا عزيزا عليك. ولهذا، فإن كان ثمة أي فائدة مما قمت به في بيت هوكشو

فهي بمحض الصدفة».

لمعت عينا ملموث الزرقاوان بشكل غريب، وانحنى بجسده للأمام، فبدا وجهه السمين متوهجا كوجه شيطان.

قال ملموث: «لا يعني المال لي الكثير يا سيد هولمز. أنت على حق.. فأنا لم أفقد –حتى الآن– شخصا عزيزا عليّ. ولكنني جاد لأقصى درجة في البحث الذي أقوم به، ولقد أغلقت لي سبيلا كان سيضلني».

لم أستطع التحكم في فضولي، فقلت: «هل لي أن أسأل ما نوع البحث الذي تقوم به؟».

التفت ملموث لي وكأنه أدرك وجودي للتو، وقال بلطفٍ: «إنه بحث عن الموت، عن حياة ما بعد الحياة».

دفعته تعبيرات الحيرة التي ظهرت على وجهي إلى الإكمال: «أنا أنتمي إلى الجيل الجديد من العلماء يا دكتور واطسون. ونحن نؤمن بأن الموت لغز قديم، لغز يمكن حله.. لغز يجب أن يُحل. إنني لا أعتقد تماما أننا نحفر طريقنا طوال حياتنا كي نقع في جُب النسيان عندما نصل للنهاية. لا بد أن هناك ما هو أبعد من هذا.. يجب أن يكون هناك ما هو أبعد من ذلك. أنا أومن أن الحياة هي فقط نقطة البداية، تماما كما يؤمن الفيزيائي أوليفر لودج وأتباعه. أنا لا أتحدث هنا عن الجنة، تلك الأرض الخيالية التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة، ولكنني أتحدث عن باب نعبر من خلاله إلى الخلود».

كان مندمجا وكأنه ممثل على خشبة مسرح، خداه أحمران ووجهه مشدود، ثم فتح ذراعيه وأشار في الهواء وهو يقول: «سيرا معا إلى الناحية الشرقية من هذه المدينة، وشاهدا بنفسيكما كيف هو حال الفقراء الجُيّع المُهانين. إنهم بشر يتصرفون كالحيوانات، يعيشون بين القاذورات والعفن. هل تسمون هذه حياة؟ لا يا سادة، لا بد وأن هناك أكثر. ثمة مفتاح يختبئ في مكان ما، من يعثر عليه ستنكشف له كل الأسرار. أنت يا سيد هولمز تقضي على آفات المجتمع، وأنت يا دكتور واطسون تقضي على علل الجسد. ليكن.. كل ما في الأمر أنني أبحث فيما هو أهم من تلك المشكلات البسيطة».

«أتعتقد أنك بإمكانك أن تغير المسار الطبيعي للحياة؟». سأله هولمز.

هز ملموث رأسه وقال: «ما تعتبره طبيعيا قد اعتبِر هكذا عن جهلٍ. إن الموت طبيعي، أوافقك على ذلك، ولكن الحياة لا تقف عند الموت. إن السذج فقط هم من يعتقدون أن الحياة تقف عندما يوضعون داخل النعوش. أتدري لماذا؟ لأن أحدا لم يتحدّ هذه النظرية. لم يكن ليوجد علاج لأي علة لو لم يتحداها الإنسان، وكنا سنستمر في العيش داخل الكهوف لو لم يتحدّ البعض منا المعتقدات السائدة، وكسروا الحواجز. أنا لا أومن بأن الموت هو النهاية، وحتما سنهزمه يوما».

سكت فجأة كما لو أدرك أنه تحدث كثيرا. وابتسم ابتسامة خبيثة.

قال بصوتٍ هامس أشبه بفحيح أفعى: «أوكد لكما أنني على حق».

انحنى بعدها وكأن مسرحيته قد انتهت، وغادر الغرفة.

«إنه شاب مجنون». أخبرت هولمز بينما سمعت ملموث ينزل درجات السلم.

ظل هولمز مصوبا نظره إلى الجمرات التي لا تكف عن الاحتراق في الموقد. ثم قال: «ليت الأمر بهذه السهولة يا واطسون».

-١-

نداء مفتش

كثيرا ما قيل -وكنت أنا أحد من أقروا بذلك- أن المحقق الاستشاري شيرلوك هولمز هو البطل الذي طبق القانون والنظام في عصره. ولكنني حينما أمعنت التفكير، وجدت أن هذا صحيح جزئيا. إن الجريمة قد فتنت هولمز، لكنه عندما يُطلب منه أن يتدخل ليحل لغز الجريمة، يكون شديد الانتقاء. لقد كنت موجودا حينما رفض العديد من الطلبات والمناشدات لحل ألغاز معينة فقط لأنها لم تثر إعجابه بالشكل الكافي. كان يجب أن تتسم بعض الجرائم بالندرة حتى يُفكر صديقي مليّا ليرى إن كان سيقوم بحلها أم لا.

لقد أحب عمل التحقيق، لكن مثل هذا العمل لا بد أن يُشكل معضلة غير عادية عليه حلها، وإلا فلن يكون هناك تحد حقيقي عليه التصدي له.

وفي ربيع عام 1896، بعد فترة من الركود، اطّلع هولمز على بعض النشاطات الإجرامية التي تناقلتها الصحف اليومية، آملا أن تقع عينه على لغز مثير يُلبي احتياجاته. كنت أساعده كل صباحٍ بالإشارة إلى بعض الجرائم التي رأيت أنها مثيرة للاهتمام.

قال لي ذات مرة مُستخفا: «ما قد تراه مثيرا لعقل المحقق يبعُد كل البعد عما أجده مثاليا لي». ثم أتبع: «موت فنان موسيقي في غرفة تغيير الملابس.. ليس ثمة أي تحدٍ ذهني في هذا. إنها حتما قضية حدثت بدافع الغيرة، ولا بد أن الفنان قد قُتل مسموما. لا شك أن محققي سكوتلاند يارد* سيحلون هذه القضية في يوم واحد!».

«هل قرأت التقرير المنشور في صحيفة «كرونيكل» عن مقتل عالم الآثار الشهير السير جورج فافيرشام؟».

أخرج هولمز طرف غليونه من فمه، وأطرق للحظة يُفكر.

«هل سُرق شيء من بيت عائلته؟».

«لا شيء ذا قيمة».

«آه!». لفظها ساخرا، ثم قال: «سطو عادي نتج عنه القتل».

رميت الصحيفة، ثم صرخت في وجهه:

«لقد فاض بي الكيل! يبدو أن لا شيء سيُرضيك».

بدت على وجه هولمز ابتسامة فاترة. ثم قال: «على الأقل كلانا يتفق على هذا».

جال ببصره حول الغرفة حتى رأى درج مكتبه الذي يحتفظ فيه بحقيبته الأنيقة التي صُنعت في المغرب، والتي تقبع بداخلها حقنة تحت الجلد.

«وهذا أيضا ليس حلا». قُلت له سريعا.

بدا وقتها أن هولمز قد تفاجأ، ثم علت وجهه ابتسامة حالمة. أدرك أن سحره قد انقلب عليه عندما قرأت أفكاره. كان سعيدا لدرجة أنه انفجر بعدها يضحك، وضحكت أنا أيضا وكأن ضحكاته مرض مُعدٍ قد أصابني. غلّفنا اللهو من كل جانب كاليرقات، لدرجة أننا لم نسمع الدقات المتتابعة على باب غرفة الجلوس حيث كنا. لحظات وفُتح الباب، ووجدنا أمامنا المفتش هاردكاسل

---

*سكوتلاند يارد: اسم مقر قوة الشرطة الإقليمية المسؤولة عن أمن معظم لندن، ويقع في جنوب العاصمة.

الذي يعمل في سكوتلاند يارد. كان هولمز قد عمل معه في أكثر من تحقيق، أبرزها قضية «اختفاء المغسلة الصينية». كان هاردكاسل رجلا عنيدا من يوركشاير، يتحرى الدقة ويتبع منهجا في كل شيء، ولم يُعط أبدا مصدر إلهام خلال عمله كشرطي.

بدا مرتبكا من تجاهلنا له.

«أرجو ألا أكون قد جئت في وقت غير ملائم يا سادة». قالها بحدةٍ بعض الشيء، غير متأكد إن كان هو سبب ضحكاتنا.

صاح صديقي الذي لم يتوقف بعد عن الضحك: «لا أبدا يا هاردكاسل. يُسعدني دائما أن أتلقى زيارة من أحد أصدقائي في الشرطة الرسمية». ثم أشار نحو مقعد، وقال: «اجلس يا زميلي العزيز، واخلع عن وجهك ملامح

الخيبة. لقد أمضيتُ أسابيع من الخمول، والتي بدورها قد خففت نشاط عقلي. إنني حقا سعيد برؤيتك، وسأكون أسعد إذا جلبت لنا معك قضية».

غيَّمت الريبة على وجه المفتش وملامحه، لكنه استجاب لدعوته بالجلوس. كان رجلا طويلا، سمين البدن، ذا وجه بيضاوي مُرصع بعينين رماديتين كبيرتين يبدو فيهما الحزن، وأنف مكسور. شعره الأسود المُغطى بطبقة بيضاء كالكريمة، بدا وكأنه قد سقط للتو على رأسه. بيديه القويتين، أمسك قبعته بإحكام، ثم جلس على المقعد المقابل لنا في غرابة.

«هل لديك حقا قضية لنا؟». سأله هولمز بهدوء، وبدا أن مزاجه تغير بسرعة.

«قضية أعتقد أنها قد تثير اهتمامك». رد هاردكاسل الذي لم يكن قد استعاد توازنه بعد.

قال هولمز وهو ينظر له: «آمل أنها ليست إحدى القضايا الموجودة في الصحف». وأعاد إشعال غليونه مستخدما جمرة متوهجة من المدفأة. ثم سأله: «إنها ليست قضية الساحر الذي مات مخنوقا في قاعة هينتي الموسيقية، أليس كذلك؟».

«بالطبع لا». قاطعه هاردكاسل ساخطا. ثم أردف: «المحقق الشاب كينجسلي يعمل على هذه القضية. أراهن أن من فعلها هو رولاند رايلي، المتشرد الأيرلندي صاحب الصوت الذهبي».

«أنا متأكد أنك مُحق. لقد سمعت أنه حينما يشرب حد الثمالة، يصبح غاضبا كوحش. في العالم المنغلق داخل قاعة الموسيقى، تتضخم أصغر الإهانات وأتفه أنواع الغيرة. أتعجب أنه ليس ثمة حمام دم كل ليلة!».

نظر هاردكاسل إلى صديقي وعلى وجهه ملامح الفضول. كان يحاول أن يتأكد هل كان هولمز جادا في حديثه، أم كان يحاول إغاظته بلطف.

«دعك من هذا». قال هولمز ثم أدار يده في الهواء مثل قائد أوركسترا يُريد أن يُسرع إيقاع الموسيقى. ثم قال: «أخبرنا عن قضيتك يا هاردكاسل».

«حدث اقتحام للمتحف البريطاني».

«أهذا كل شيء؟». تنهد هولمز وهو يتراجع في مقعده.

«هناك المزيد من التفاصيل».

«يُستحسن ذلك.. ترى ما الذي سُرق؟ آنية فخارية من القرون الوسطى، أم بعض الحلي الرخيصة للملك هنري الثامن؟!».

«سأخبرك بهذا في غضون الدقائق القادمة. إنه عمل احترافي قام به رجلان».

«وكيف عرفت؟».

أضاء السؤال وجه المُفتش، فقال: «لأن غباءهما جعلهما يخلفان بعض الآثار يا سيد هولمز. لقد وجدنا آثارا لأقدامهما الملطخة بالطين بالقرب من مسرح الجريمة، وقبل أن تسأل، تلك الآثار ليست لأناس آخرين، لأن العاملين ينظفون المكان بعناية بعد ميعاد الغلق».

رفع هولمز يديه مستسلما وقال: «رجلان إذا يا هاردكاسل».

«المُقتحم والخبير، على حد تخميني».

«خبير؟» سألته.

«نعم يا دكتور واطسون. إنه شخص يعرف تماما ما يريده. كان المتحف بين يديه كاملا، لكنه سرق شيئا واحدا جاء من أجله تحديدا».

انحنى هولمز للأمام. بدا أن الأمر أثاره. سأل هاردكاسل: «وما كان هذا الشيء؟».

أجابه: «وثيقة من ورق البردي. أعتقد أنها لفافة».

«لا شك كانت في حجرة الآثار المصرية».

«هذا صحيح. الحجرة المملوءة بالمومياوات القديمة والتماثيل ذات رؤوس الكلاب، وما شابه ذلك».

قال هولمز: «وتضم أيضا تشكيلة من الحلي المصنوعة من الذهب وأشياء أخرى ثمينة للغاية كان سيسهل عليه سرقتها، وقيمتها أكبر بكثير من وثيقة عفا عليها الزمن».

«بالضبط، سيد هولمز».

«ماذا استنتجت مما سمعت يا واطسون؟».

«إنه جامع تحف سيضُم الوثيقة لباقي مقتنياته الخاصة، لاستخدامه الشخصي».

ابتسم صديقي ثم قال: «وليس بأي جامِع تحف. إنه محدد ودقيق للغاية».

قال هاردكاسل: «أكثر مما تظن. إنه يقتل من أجل الغنيمة».

«قتل من؟».

«حارس الأمن الليلي».

«كيف؟».

«برصاصة في رأسه من مسافة قريبة».

«حقا؟».

«مستخدمًا مسدس ديرنجر».

«وكيف لك أن تكون متأكدا هكذا؟». سألته.

أجابني هاردكاسل بأن أدار يده في جيبه وأخرج منه حقيبة مخملية داكنة يخنق أعلاها حبل رفيع. فتحها، فانزلق ما تحويه إلى الطاولة الصغيرة القريبة من هولمز. كان مسدسا فضيا صغيرا يتوهج في ضوء نار الموقد.

«لقد وقع من القاتل وهو يهرب».

«لم يُلقِ بالا لهذا». قال هولمز وهو يلتقط أنبوبا طينيا طويلا من فوق رف الموقد. مرر الجذع من خلال واقي الزناد، ورفع المسدس ليفحصه.

«سلاح باهظ الثمن.. الفضة عليها نقوش.. اشتراه حديثا». تمتم بهذه الملاحظات لنفسه بدلا من أن يخبرنا بها.

«لقد تذكرت نظامك الخاص في فحص البصمات يا سيد هولمز». أخبره هاردكاسل، ثم أكمل: «هكذا استطعت أن تنصب فخا للمجرم فو وونغ، لكني أعتقد أنك لن تجد أي بصمة على هذا السلاح».

«بالطبع لا، فشخص كهذا لا بد أن يكون قد ارتدى قفازا».

قرّب هولمز السلاح من أنفه وشمه. كان للمسدس مقبض مغطى بالجلد البني مصنوع بدقة.

فحص هولمز الفوهة ثم قال: «أُطلق منه رصاصة واحدة. إنه ليس نوع المسدس الذي عادة ما يحمله من ينفذون جرائم السطو ممن قابلناهم، أليس كذلك يا واطسون؟».

«هذا مسدس للسيدات». أجبته.

«لكنه يؤدي مهام الرجال».

أخذ هولمز المسدس إلى النافذة، ثم التقط عدسته المُكبرة من المكتب، وشرع في تفحصه بعناية شديدة. بعدها عاد ليجلس على مقعده، ووضع المسدس مجددا داخل الحقيبة، وسلّمه للمفتش.

«سيد هولمز، هل استنتجت شيئا؟».

زم هولمز شفتيه، وهز رأسه، قبل أن يجيبه: «أشياء بسيطة.. صاحب السلاح صغير السن، أشقر الشعر، كثير الإنفاق أو مبذر بطبعه بعض الشيء، متكبر أيضا وثقته بنفسه عالية لأقصى حد، وربما يكون غير سوي عقليا».

حملق المفتش فيه وهو يقول: «كيف لك أن تصل إلى مثل هذه الاستنتاجات؟».

«ثمة شعرة شقراء في واقي الزناد، عرفتُ منها اللون والسن. وشممت رائحة عطر رجالي خافتة تنبعث من المقبض الجلدي. من الواضح أن الرجل قد أمسك بالمسدس بينما أصابعه لم تزل مُبللة برذاذ العطر، مما جعل الرذاذ يتسلل إلى ثنايا جلد المقبض. وإن الرائحة القوية التي لم تزل بسرعة، تلك الرائحة تحديدا، تشير إلى أن ثمن الزجاجة لا يقل عن خمسين شلنا. هذا يُبين أن الرجل مُبذر. أما عن الرصاصة الواحدة التي لا يوجد غيرها في المسدس، فإنها تشير إلى أن المجرم الصغير كان واثقا تمام الثقة أن

رصاصة واحدة فقط تكفي لإنهاء المهمة، وينم هذا أيضا عن كونه مغرورا لدرجة ملحوظة. من المحتمل أيضا أن يكون هذا الشخص قد عطَّر نفسه بعطرٍ باهظ الثمن قبل ارتكابه جريمة مروعة لأنه يعتبر القتل حدثا مجتمعيا، وأفسر أنا هذا أنه إحدى درجات عدم الاستقرار العقلي».

«غير معقول!». تمتم هاردكاسل. لم أدرِ إن كان يشير إلى قدرة هولمز على استنتاج كل هذه التفاصيل عن الجريمة بمجرد فحصه للمسدس، أم أنه كان يشير إلى شخصية القاتل كما وصفه صديقي.

«إن هذه التفاصيل القليلة قد تساعدنا فيما بعد. لكن الآن، فلن تذهب بنا بعيدا. أعتقد أن الجدوى الحقيقية ستأتي من معرفتنا بطبيعة ما تم سرقته».

بدا هاردكاسل غير مُقتنع: «كما أخبرتك، سيد هولمز، إنها بردية قديمة مملوءة بكتابات عتيقة».

«كتابات هيروغليفية». قلت له.

انكمش وجه الشرطي وهو يقول: «هذا ما اعتقدته يا دكتور واطسون. عليّ أن أعترف بأن الجرائم التي أتصدى لها على شاكلة: سرقة لوحات، أو مجوهرات، أو جرائم إطلاق نار وطعن مباشرة».

لمعت عينا هولمز بخبث، وقال: «وقد استغرق منك الأمر 48 ساعة كي تكتشف أنك بعيد عن صلب المهمة. لا تنكر، أيها المفتش، فإن التآكل الذي أحدثته مادة الكوردايت في ماسورة المسدس يشير إلى أن الرصاصة قد أطلقت منذ يومين أو ثلاثة. وإن تلك التجاعيد التي تعلو حاجبيك يا صديقي تبين أن ثمة مشكلة تؤرقك. إنها حتما مشكلة أتعبتك لأيام، ولم تصبك فجأة. اليوم صباح الاثنين، ومن خلال حساباتي فالجريمة قد وقعت ليلة الجمعة الماضية. هل هذا صحيح؟».

أومأ هاردكاسل برأسه مثل الأخرق.

«لكن لم تذكر الصحف أي خبر عن الجريمة حتى الآن». أخبرتهما.

«لقد استطعنا أن نحجب الأخبار عن الصحف». رد هاردكاسل. ثم أضاف: «كنا بحاجة لبعض الوقت كي نستعين ببعض التجار الذين يتعاملون مع مثل هذه التحف قبل أن تشتم الصحافة رائحة الخبر الطازج».

«موريسون ذو الغبار وأمثاله؟».

أومأ هاردكاسل برأسه وقال: «هذا صحيح، سيد هولمز. لقد أمسكنا بأطراف كل الخيوط الواضحة لنا، سواء داخل أو خارج معرض روجز، ولكن انتهى بنا الأمر أن اصطدمنا بعُرض الحائط!».

«ما هي قيمة تلك الوثيقة؟». سألته.

هز هاردكاسل كتفيه كمن لا يعلم. ثم قال: «لا يستطيعون تثمينها. ربما قد تكون بالنسبة لي ولك بلا قيمة. لكن لخبير كهذا فهي لا تقدر بثمن». وفجأة، انحنى الشرطي بجسده للأمام في توتر، ووجهه المتألم ينكمش وكأنه يعاني من وجع أسنان حاد. قال موجها كلامه لهولمز: «هذا الأمر يفوق قدراتي يا سيد هولمز. أرجو حقا أن تسلط الضوء على هذه القضية».

«يسرني ذلك يا هاردكاسل». ثم قال وهو ينظر لي بطرف عينه: «كما تعلم، إنه لمن دواعي سروري أن أقدم المساعدة دائما للسلطات الرسمية كلما استطعت».

أشرق وجه المفتش وارتخى جسده على نحو ملحوظ. قال: «رائع! هناك سيارة أجرة تنتظرني. وإذا تفضلت، فيمكننا الذهاب إلى المتحف البريطاني الآن. إن السير تشارلز بارجيتر، أمين قسم الآثار المصرية، بإمكانه أن يشرح لك كل شيء يخص البردية الملعونة».

«ممتاز!». صاح هولمز قاذفا بردائه في الهواء.

سألني: «هل ستأتي يا واطسون؟».

«بالتأكيد».

«إذن، يا صديقي العزيز، أحضر معطفك، وقبعتك، وعصاك. سنرافق صديقنا هذا إلى المتحف البريطاني».

-٢-

لقاء مع السير تشارلز

«بالطبع، كنت يوما أحد المترددين على هذا المبنى الراقي. عندما جئت إلى لندن لأول مرة، سكنت أكثر من غرفة في شارع مونتاغ. وكنت آتي إلى هنا عادة كي أذاكر في غرفة القراءة التي -من حسن حظي– كانت دافئة ولا يُدفع لدخولها رسوم». أخبرنا هولمز.

عبرنا مع المفتش هاردكاسل بوابات المتحف الضخمة، واقتربنا من الأعمدة الأيونية الثمانية العملاقة التي تقف كالحراس أمام المدخل.

دلفنا إلى الداخل، وقادنا هاردكاسل إلى مكتب السير تشارلز بارجيتر. ولأن مكتبه يبعد عن الساحة العامة للمتحف، استوقفنا فرد أمن كثيف الشارب، تحقق من هوية هاردكاسل بتمعن قبل أن يسمح لنا بإكمال السير نحو المكتب.

مشينا في عدة ممرات ضيقة، خافتة الإضاءة، لا ينبعث منها أي صوت، حتى وصلنا إلى باب يحمل اسم من جئنا لزيارته. طرق هاردكاسل الباب بقوة.

مرت برهة من الصمت، تبعها صوت حاد به شيء من الغضب، يقول: «ادخل!».

وجدنا أنفسنا في غرفة أضواؤها كثيفة، جيدة التهوية، بها نافذة واحدة تطل على الجزء الشمالي الشرقي من المتحف. الغرفة مكتظة بخزانات الكتب الممتلئة عن آخرها، وعلى الأرض تناثرت عدة مستندات ودفاتر. كان السير تشارلز يجلس على مكتب كبير مصنوع من خشب البلوط، جسده منحنٍ للأمام، مدققا نظره في خريطة عتيقة مستعينا بعدسة مكبِّرة. لم يلتفت إلينا عند دخولنا، بل ظل يفحص الخريطة بوجهٍ مشدوه.

أغلق هولمز الباب بقوة متعمدة، مما شتت تركيز الرجل، فنخر في ضيق، ونظر إلينا. كان رجلا قصير القامة حد القزامة، يُشبه السيد بيكويك*، عيناه زرقاوان تلمعان من خلف نظارته، أصلع الرأس، ولكن الشعر على جانبَي رأسه، رمليّ اللون وبه أطياف من الرمادي، عالق كما لو كان يحاول الهروب من فروة رأسه.

«آه، المفتش هورنكاسل». قال وعيناه تضيقان وهو يستقبلنا.

«هاردكاسل، يا سيدي». صحح له هاردكاسل.

«حسنا». رد السير تشارلز بينما يلوّح بعدسته المكبرة في اتجاهنا. «لا تقل أنك قد ألقيت القبض على الجناة أخيرا!».

لم ترُق المزحة لهاردكاسل، بل بدا عليه الانزعاج بعض الشيء وهو يقول: «لا يا سيدي، هذا السيد شيرلوك هولمز، وبرفقته مساعده الدكتور واطسون».

عندما سمع السير تشارلز اسم صديقي، ألقى بعدسته على المكتب، ثم قام من مكانه وصافح هولمز بحرارة ثم قال: «شيرلوك هولمز! أتمنى أن تكون قد جئت لمساعدتنا».

«سأفعل كل ما بوسعي».

أومأ السير تشارلز برأسه وهو يصافحني، وقال: «بالطبع، فهذا ما يجب للمرء أن يفعله في الحياة. لقد خلقنا في هذه الأرض كي

---

* الشخصية الرئيسية في رواية «مذكرات بيكويك» لتشارلز ديكنز. يوصف بأنه رجل بدين وكبير السن.

نقوم بعدة مهام، لا يهم إذا كانت متواضعة أم سامية، ما يهم هو أن نؤديها بكل ما أوتينا من قوة. أليس كذلك أيها المفتش؟».

أومأ هاردكاسل برأسه، وبدا عليه شيء من عدم الارتياح. لم يكن لديه متسع من الوقت لكي يستمع إلى تفلسف السير تشارلز، كان حريصا فقط على إنجاز مهمته. قال بنبرة حادة: «لقد جاء السيد هولمز إلى هنا كي يعرف بعض المعلومات عما سُرق».

«بالتأكيد.. كيف لي أن أساعد؟».

«أريد أن أعرف أكثر عن طبيعة الوثيقة المسروقة قبل أن أضع نظريات تترتب عليها خطواتنا القادمة». أخبره هولمز.

«مفهوم. أرجوكم تفضلوا بالجلوس.. قد يتطلب ذلك تحريك بعض أوراقي.. جيدِ.. يا إلهي، يبدو أنه ليس ثمة مقعد لك أيها المفتش».

«سأكون مرتاحا بوقوفي هنا يا سيدي». رد المفتش بهدوء.

عاد السير تشارلز إلى مكتبه الذي يبدو كالقزم وهو جالس عليه، ثم خلع نظارته ومسحها بمنديل أزرق ضخم.

«يجب أن تعلموا، يا سادة، أنني ما زلت أرثي فقدان تلك البردية النادرة. لكن دعوني أبدأ من البداية». وضع نظارته على المكتب، ورجع للخلف في مقعده، وأكمل:

«في عام 1871، اكتشف عالما الآثار البريطانيان، السير جورج فافيرشام والسير أليستير آندروز، مقبرة في صعيد مصر بها أربعون مومياء، جميعها متناثرة ومتباينة في حالات التحلل. تم إخراج بعضها من القبور وتخبئتها في ممر سري رأسي. وعُثر على إحدى المومياوات، موضوعة في ناووس مؤقت، داخل فتحة تمتد بزاوية قائمة على هذا الممر السري، وهذا لحمايتها من لصوص المقابر، كما تعلمون. اكتشف –بعد ذلك– أنها مقبرة الملكة حنت-تاوي».

أكمل السير تشارلز:

«كانت في الواحدة والعشرين أو الثانية والعشرين من عمرها حينما ماتت. نعلم أنها كانت زوجة الملك بانجم الأول، أول ملوك الأسرة الواحدة والعشرين، الذي كان يخدمه الكاهن الأكبر سِتاف الولِع بالسحر الأسود، والذي قيل أن أوزوريس، إله الموتى، قد تجسد في شكله. تغلب الحزن على الملك بانجم الأول بسبب موت زوجته صغيرة السن، وترجّى سِتاف كي يعيدها إلى الحياة باللجوء إلى السحر.. عليكم أن تعلموا أيضا أن قدماء المصريين كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت. وفي اعتقادهم أنهم حينما يموتون، فعليهم المرور بالعالم السفلي، وهو عالم مظلم وشديد الخطورة، قبل أن يصلوا إلى نعيمهم الأخير».

«حقول القصب»*.

«بالضبط، سيد هولمز. هي ما يعادل الجنة في عقيدتنا. وكان المصري القديم يأخذ معه مصنوعات يدوية معينة وبعض المتعلقات الضرورية إلى القبر لاعتقاده أنها ستكون ذات نفع له في رحلته، وفي حياته في العالم الآخر. ومن ضمن هذه المتعلقات «لفافة الموتى».. وهي مجموعة من أوراق البردي مكتوب عليها تعاويذ تساعد الميت على اجتياز مخاطر العالم السفلي والوصول بسلام إلى حقول آرو، أو الجنة».

تابع السير تشارلز كلامه:

«لم يُرِد بانجم لحنت-تاوي أن تخوض تلك الرحلة تحديدا، بل

---

*حقول آرو ويُطلق عليها أيضا يارو، والآيارو، وحقول أوزوريس: هي الجنة عند قدماء المصريين، التي سيعيش فيها الصالحون حياة أبدية.

أرادها أن تبعث من جديد –بلحمها ودمها– كي يتمتعا معا بملذات الحياة. ولهذا فقد طلب من ستاف، أو بالأحرى هدده، أن يصنع لها لفافة بها تعاويذ تمكنها من التغلب على الموت».

هنا سكت السير تشارلز برهة وابتسم، ثم أكمل:

«إنها ليست مهمة سهلة لأي شخص. ولكن، كما أشرت مسبقا، كان سِتاف يمارس السحر الأسود، وربما كان يستعين بأوزوريس، ولذا فقد استطاع تلبية ما طلب منه. ومع ذلك، فلم يتم استخدام لفافة الموتى، لأن الآلهة قد منعوا سِتاف من ذلك بعدما عرفوا باكتشافه لسر الخلود، كما أمروه أن يقطّع اللفافة إربا، ولكنه -بدلا من ذلك– خبأها، آملا أن يستخدمها يوما ما. ولسوء حظه، مات قبل أن يستفيد من قواها، ودفنه كهنة المعبد في مكان سري –كما وصّاهم– ودُفنت معه جميع متعلقاته بما فيها اللفافة.. كان رجلا ماكرا. اعتقَد أنه اكتشف الحيلة السحرية التي سيستعين بها للتغلب على الموت. وعلى الرغم من أن الآلهة حرمته من استخدام اللفافة، إلا أنه لم يستطع أن يدفن معه سره المذهل، فخلّف وراءه بعض الألغاز التي تتطلّب شخصا لديه قدرة غير عادية على التخيل مثله تماما، كي يكتشف مكان مقبرته التي تقبع لفافة الموتى بداخلها. سجّل كل التفاصيل عن مكان وجودها على بردية وخبأها في جثة حنت-تاوي المحنطة».

قال السير تشارلز أخيرا: «إن لفافة الموتى تلك هي واحدة من أكثر الآثار المصرية المرغوبة على الإطلاق.. لم يرها أحد بعينه في عصرنا الحديث، لكن ثمة دليلا على وجودها من العالم القديم».

«إذا، هذه ليست البردية التي تم سرقتها، أليس كذلك؟». سألته.

هز السير تشارلز رأسه ثم قال: «عندما فُتحت مقبرة حنت-تاوي، وُجدت المومياء بحالة جيدة للغاية، وكان ثمة بردية مُخبأة بين طبقات الأربطة

الكتانية. تلك البردية هي ما سرقها اللصّان الأسبوع الماضي».

«وما الذي تحويه تلك البردية؟». سأله هولمز الذي ظل وجهه جامدا طوال حديث السير تشارلز.

«إنها بردية عجيبة مكتوبة بشيفرة في غاية الغرابة.. شيفرة سِتاف الخاصة.. أغلب الظن أنها الهيروغليفية المستخدمة أثناء فترة حكم الأسرة الواحدة والعشرين، عدّلها سِتاف وأضاف لها رموزا من ابتكاره. المؤكد أن سِتاف كتب ما تحويه البردية بنفسه، لأنه وقّع عليها بتوقيعه المميز: نصف جعران. إن ما كتبه سِتاف على تلك البردية يرشد إلى مكان قبره».

«هل هي خريطة إذن؟». سألت السير تشارلز.

ابتسم لي وهو يرد: «ببساطة، نعم.. ولكنها تحوي أيضا بعض الفقرات التي يتحدث فيها سِتاف عن فلسفته، ويثني فيها على الملك بانجم الأول وزوجته حنت-تاوي. ثمة أيضا بعض الإشارات إلى أوزوريس، ولكن ما عدا ذلك يظل لغزا».

«بما في ذلك مكان قبره؟». سأله هولمز.

«نعم».

«قد يكون هذا دافعا لسرقة البردية.. لاكتشاف المقبرة المخفية».

هز السير تشارلز كتفيه، ثم قال: «إن كان هذا صحيحا، فلا بد أن اللصين يحلمان. فعالما الآثار اللذان عثرا على البردية لم يستطيعا أن يفهما منها شيئا. ومنذ ذلك الوقت، يتم فحصها -بين الحين والآخر- من قِبل علماء المصريات ممن زعموا أنهم فهموا رموزها».

«ومتى كانت آخر مرة فُحِصت فيها؟».

«منذ مدة.. حوالي عشر سنوات. يمكنني معرفة ذلك إذا كان هذا سيفيدك».

قال هولمز: «قد يكون هذا مهما.. دعنا نفترض للحظة أن اللصّين قادران على فهم ما تحويه البردية من ألغاز، وقدِرا أيضا على فك شيفرة الخريطة

ليذهبا في رحلة البحث عن مقبرة سِتاف. ترى ما الذي سيحصلان عليه في مقابل تكبدهما هذا للعناء؟».

«لن ينالا من الثراء إلا القليل، فإن سِتاف لم يكن ملكا، بل كاهنا. بالطبع ستكون هناك متعلقات من ذهب، وحليّ.. لكن عددها قليل».

سكت السير تشارلز لبرهة، ثم انحنى بجسده إلى الأمام وهو ناظر إلينا، وقال بصوتٍ هامس:

«ستكون هناك بالطبع لفافة الموتى السحرية».

-٣-

مشاهد الجرائم

«بعد وقوع الجريمة، استطعنا أن نغلق معرض الآثار المصرية ليوم واحد فقط بحجة فحص جزء من المجموعة. لو كنا انتظرنا لأكثر من ذلك، لا شك أن الصحفيين كانوا سيشتَمُّون رائحة الجريمة تنبعث من المتحف».

كنا نقف عند مدخل معرض الآثار المصرية حينما شرح لنا السير تشارلز بارجيتر هذه النقطة. رأينا عددا قليلا من الزوار يتجولون في المكان، يمعنون النظر في القطع الأثرية. لفت نظري طريقة تقسيم الغرفة.. فهي تتكون من ثلاثة أقسام، كل قسم يضم عددا من صناديق العرض الزجاجية التي بداخلها إما مومياوات بُنية مهترئة، وإما مصنوعات يدوية لا تقدر بثمن، تنتمي إلى تلك الحضارة التي ازدهرت في فجر التاريخ.

كما رأينا رسومات لمشاهد من حياة قدماء المصريين على الحائط العالي فوقنا، مُضاءة بأنوار الكهرباء الخافتة الحديثة.

«لماذا تخشى أن تنشر الصحف خبرا عن الجريمة؟». سألت السير تشارلز.

«ليس من السهل أن يُعلِن متحف عن سرقة أحد آثاره. فقد يتسبب هذا في امتناع المتبرعين من دفع أموالهم التي ينتفع بها المتحف، ولأن في حين انتشار الخبر، ستكون سرقة المتحف فرصة سيَود اغتنامها جماعات اللصوص. ربما يصيح أحدهم: اذهبوا إلى المتحف البريطاني، فإن سرقته في غاية السهولة!».

«والكتمان يصب في مصلحتنا أيضا». أضاف هاردكاسل.

«كيف دخل المجرمان المتحف يا هاردكاسل؟». سأله هولمز.

أشار هاردكاسل إلى سقف الغرفة، فنظرنا إليه جميعا.. كان ثمة ثلاثة مناور ضخمة مستطيلة، تزود الغرفة بالإضاءة الأساسية.

«قاما بفتح أحد تلك المناور وأسقطا منه حبلا، وبعدما أنجزا المهمة، خرجا بنفس الطريقة. وبينما هما يغادران من الفتحة، ألقيا بالحبل ملفوفا بالقرب من صندوق العرض الذي به مومياء الملكة حنت-تاوي».

نظر هولمز إلى المناور ثم إلى السير تشارلز، وسأل: «وأين هي؟».

«من هنا يا سادة». رد السير تشارلز.

قادنا إلى الممر المركزي، وتوقف عند منتصفه، أمام صندوق عرض زجاجي مفصول عن باقي الصناديق.

«هذه هي الملكة حنت-تاوي». أخبرنا بطريقته المبالغ فيها.

شعرت بوخز مؤلم في مؤخرة رقبتي بينما أرمق ما تبقى من الملكة الشابة التي كانت على قيد الحياة منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. طبقة متماسكة من الطلاء تعلو وجهها، الذي بدا في حالة مُذهلة، وكأنها ترتدي قناعا به عينان بنيتان مزيفتان، تنظران إلى السقف بلا حياة. وعلى رأسها المنكمش شعر مستعار ثقيل مثل شعر الميدوسا، وباقي جسدها مغطى بأربطة كتانية مهترئة.

«ألا تبدو جميلة؟». سأل السير تشارلز وهو يبتسم لنا.

«عليّ القول أنها ليست على قدر تصوّري للجمال». رد هاردكاسل بنبرةٍ جادة.

أخذ هولمز يدور حول الصندوق الزجاجي بجسد مُنحنٍ، ويقف –من حين لآخر– مُقرِّبا وجهه من الزجاج كي يتفحّص المومياء. أشار إلى قطعة ممزقة من الجسد بالقرب من الفخذ، وقال: «هل كانت البردية في هذا الموضع من الجسد؟».

انفرج فم السير تشارلز في دهشة بالغة. قال: «نعم، سيد هولمز.. يا لمهارتك!».

«من الواضح أن ذلك القطْع حديث، فالقماش به آثار بياض. ومن الواضح أيضا أنكم اضطررتم أن تأتوا بلوح زجاجي آخر ليحل محل هذا اللوح فقط، دون الحاجة إلى تغيير الألواح الثلاثة الأخرى، فمعجون الزجاج الذي استُخدِم لم تزل آثاره بعد. عليّ القول بأن ذلك الخبير يعلم بالضبط ما يريده».

قلت لهم: «وأعتقد أن صوت كسر الزجاج هو ما نبّه الحارس، وعندما ذهب ليتحقق من مصدر الصوت، «قتلاه».

هز السير تشارلز رأسه وهو يخبرني: «لا، دكتور واطسون، لقد قتل في مكتبه».

«ماذا؟!». صرخت، ثم نظرت إلى هولمز الذي شاركني نفس الصدمة.

«لماذا لم تخبرني بهذا يا هاردكاسل؟». سأله صديقي بحدة.

ارتبك هاردكاسل، وهيأ نفسه لصيْحة غضب من هولمز.

بوجه شاحب، ولسان متلعثِم، قال: «حسنا.. إنني لم أعد هذا أمرا مهما».

نظر له هولمز نظرة اشمئزاز، وقال: «معلومة كهذه ستساعدنا على فهم طريقة تفكير الجانيين، وربما نعرف شيئا عن طريقة تنفيذهما للجريمة!».

صمتنا جميعا للحظة حتى قطع السير تشارلز حبل الصمت، وقال: «ملاحظتك في غاية الأهمية.. هلّا شرحت لنا أكثر؟».

«عليّ أولا أن أفحص مكتب الحارس، إذا سمحت لي بذلك».

«بالتأكيد.. اتبعني».

***

دخلنا غرفة ضيقة وفوضوية، بها طاولة ضخمة تحتكر مساحة كبيرة عليها موقد غاز، وكوبان، وأغراض أخرى لعمل المشروبات. وجدنا شابا بدينا، ذا وجه يميل للحُمرة، يجلس على كرسي قديم متهالك واضعا قدميه على الطاولة، ويقرأ جريدة «السباق». عندما رآنا، قفز من مكانه، وانحنى بظهره وهو يقول:

«عذرا، سيدي». قال بلهجة كوكنية* رقيقة. خداه ازدادا احمرارا من أثر صدمته لدخولنا المفاجئ.

«لم أعلم أنك ستأتي يا سيدي.. إنه موعد استراحة الشاي الآن».

عندما لاحظ أن الجريدة ما زالت في يده، أخفاها سريعا وراء ظهره.

ابتسم السير تشارلز وقال: «لا عليك يا جنكنز. أنا لا أتفقد العاملين اليوم، لقد جئت فقط لأن هؤلاء السادة يحققون في جريمة سرقة البردية وقتل

دافنتري ويريدون معاينة الغرفة التي قتل فيها». التفت ثم قال مخاطبا هولمز: «هذا جنكنز، حارس الفترة الصباحية لهذا الجناح. لم تتسن لنا بعدُ فرصة لتعيين حارس يحل محل دافنتري، ولذا فقد وزّعنا مهامه على باقي الحراس مؤقتا».

أومأ هولمز برأسه، ثم تراجع للخلف وهو يسأل الشاب: «أنت

---

* لهجة شعبية يتحدث بها أهالي شرق لندن، والجنوب الشرقي من إنجلترا بوجه عام. وترتبط هذه اللهجة بشكل قوي بالطبقة الكادحة.

من وجدت الجثة يا جنكنز؟».

«نعم.. يا سيدي. صباح يوم السبت، وصلت.. وصلت إلى المتحف الساعة الثامنة كالمعتاد. في البداية بدا كل شيء طبيعيا إلى أن دخلت الغرفة.. وجدته مُلقى هنا على البساط».

أشار إلى ركن، فنظرنا نحوه جميعا. من الواضح من حالة بلاط هذا الركن المستطيل أن كان ثمة بساط يُغطيه، فلونه أكثر نصاعة من باقي الغرفة المُتربة.

أكمل: «لم يكن هناك الكثير من الدماء، فقط بقعة داكنة على أحد جانبَي رأسه».

شحب وجهه لبعض الوقت.. ورأيته يبتسم والدموع تترقرق في عينيه وهو يقول: «كان رجلا صالحا.. اعتدنا أن نشرب الشاي معا ونتحدث مليا قبل أن يغادر إلى بيته».

«كنتما تتناقشان حول أخبار سباقات الخيل، أليس كذلك؟ وربما أيضا تتراهنان على الفائز؟». قال هولمز.

توتر جنكنز وتحسس الجريدة التي يخفيها وراء ظهره. نظر إلى السير تشارلز وهو يرد: «نعم.. نعم يا سيدي».

«لا تتوتر، فالرهان ليس مخالفا للقانون، لكنني أعده نوعا من الطيش. لدي صديق ينفق جزءا كبيرا من مرتبه على رهانات سباقات الخيل».

«لقد أحببنا المغامرة حقا. وكنا بالفعل نتراهن، لكنني متزوج، وزوجتي على وشك الإنجاب، ولهذا فلم أكن أخاطر كثيرا. لكن دافنتري...».

«كان مقامرا جريئا».

«أجل يا سيدي».

«وخاسرا كبيرا أيضا».

التفت جنكنز بعينيه البنيتين المُنطفئتين إلى السير تشارلز مرة أخرى.

استكمل هولمز دون أن يعِره انتباها: «أشك أن صديقك كان غارقا في الديون. هل هذا صحيح؟».

عجز جنكنز عن الرد.

«أخبرنا الحقيقة يا جنكنز. لا تخف، أيا كان ما فعله دافنتري، فهذا لن يؤثر عليك». قال السير تشارلز لجنكنز الذي كان يقف مطأطأ الرأس.

تنحنح جنكنز ثم قال في توتر: «الحقيقة أن دافنتري كان يدين بالكثير لمُقرضي المال. خِفت عندما أخبرني بتهديداتهم المتتابعة له بسبب عدم دفعه. دائما ما سخر من الأمر وقال أن ثمة شيئا سيحدث ليقلب الموازين».

«وقد حدث». قال هولمز بنبرة حادة.

«معذرة، سيد هولمز. هل تعتقد أن مقرضي المال هم من ارتكبوا الجريمة؟!». سأله هاردكاسل متعجبا.

هز هولمز رأسه ثم قال لجنكنز: «أخبرني، أين يحتفظ دافنتري بمتعلقاته الشخصية؟».

«في خزانته يا سيدي. كل منا لديه خزانة خاصة به». أشار إلى ركن من الغرفة حيث تقف خزانتان عاليتان صدئتان، تستند إحداهما إلى الأخرى. اتجه هولمز نحوهما وهو يسأل: «أي منهما هي خزانة دافنتري؟».

أشار جنكنز إلى إحدى الخزانتين.

أدار هولمز المقبض.

«إنها مغلقة. هل فتحها أحد بعد وقوع الجريمة؟». وجّه هولمز السؤال لهاردكاسل الذي التفتنا له جميعا.

هز هاردكاسل كتفيه وقد بدت على وجهه الحيرة. قال: «لا أعتقد أن أحدا حاول فتحها، فليس ثمة ما يربطها بجريمة السرقة، أو حتى القتل».

«أين المفتاح؟». صاح هولمز.

«أظن أنه في سكوتلاند يارد الآن مع باقي متعلقات دافنتري الشخصية».

زمجر هولمز بغضب، وأخذ يُفتش في جيبه حتى أخرج منه مطواة صغيرة.

قال: «في غياب المفتاح، تفي أداة السرقة هذه بالغرض».

أدخل شفرة المطواة في الفتحة التي بين الباب وجانب الخزانة وضَغط على القفل.

«بالقليل من المعرفة، مع استخدام القوة، سننجح».

وبعد أقل من دقيقة، سمعنا صوت قعقعة بعدها فتح باب الخزانة على مصراعيه.

«انظروا!». صاح هولمز.

«ما كل هذا، سيد هولمز؟ هل تحاول خداعنا؟». علا صوت هاردكاسل الذي لم يستطع قمع دهشته.

«أوكد لك، أيها المفتش، أنني لا أخدعكم.. سأشرح كل شيء بالتفصيل بعد قليل».

أخذ هولمز يبحث في الخزانة. مرت لحظات حتى سمعناه يصيح صيحة انتصار دوَّت في أركان الغرفة. وجدناه يُخرج صندوقا ملفوفا بغطاء بني من الخزانة. رماه لجنكنز وهو يقول: «افتحه يا بُني، ومتِّع ناظريك بما بداخله».

التقط جنكنز الصندوق. أومأ السير تشارلز له برأسه وكأنه يُعطيه إذنا بفتحه، فبدأ جنكنز يزيل -ببطء شديد في البداية- الغطاء البُني بأصابع مرتعشة، ثم سرعان ما انتابه الحماس وهو يزيل الغطاء تماما. فتح الصندوق، وتكشّفت محتوياته: محفظة كبيرة مصنوعة من الجلد، لونها بُني. أخذها هولمز من

الشاب وأفرغ كل ما فيها على الطاولة، وإذ بهرمٍ غير منتظم من العملات المعدنية الذهبية يتلألأ أمامنا.

«يا إلهي! يا لها ثروة!». صاح جنكنز.

«قد يوافقك البعض يا بني». قال هولمز، ثم، بأصابعه الطويلة، أخذ حفنة من العملات ومررها أمام أعين السير تشارلز وهاردكاسل اللذين وقفا مكانهما كصنميْن من فرط الاندهاش.

«هذه حوالي مائة عملة.. مبلغ لا بأس به. لو كان دافنتري على قيد الحياة، كان حتما سيستمتع بذلك المكسب غير الشرعي».

«غير شرعي؟». سألته.

«أجل.. هذا ما تلقاه دافنتري نظير مساعدته للصّيْن على دخول المتحف، ولتمثيله دور الأعمى إلى أن ينجزا عملهما».

«هل تعني أنه كان حليفا لهما؟!». سأله السير تشارلز الذي لم يزل مندهشا.

«نعم.. فقد أصبح معروفا في دوائر معارفه أنه مُدان. ومن السهل للمهتمين أن يعرفوا كم المبلغ. وفي هذه الحالة، يسهل رشوة رجل في أمس الحاجة للنقود».

«رشوة؟».

«أجل يا هاردكاسل». أشار هولمز إلى النقود، ثم قال: «لقد عرضا هذا المبلغ على دافنتري كي يعينهما على سرقة بردية حنت-تاوي».

«إذن أنت تزعم أن اللصيْن دخلا المتحف بكل سهولة، وسرقا البردية، ثم خرجا بينما يمسك دافنتري لهما الباب!».

«بالضبط.. لصَّان متحضران، أليس كذلك؟».

«ولكن، ماذا عن الحبل وآثار الأقدام؟».

«أدلة مزيفة كي يضلانا بها. لقد جعلا طريقة دخولهما وخروجهما تبدو سهلة التوقع بالنسبة لنا، وأرغمانا على التصديق أن من ارتكب الجريمة هما لصان

لديهما خبرة ولكن تقليديّيْن. فكر في الأمر.. كيف لهما أن يصعدا للسطح من الأساس؟ من المؤكد أنهما لو فعلا هذا، لكان انتبه باقي الحراس».

نظر هولمز إلى السير تشارلز، منتظرا منه أن يُبدي موافقته على ما قال. أومأ السير تشارلز برأسه في تردد.

«هل صعد رجالك إلى السطح كي يبحثوا عن أي أثر لهما يا هاردكاسل؟». سأله هولمز.

«لقد أرسلت ضابطين إلى هناك ولم يجدا شيئا».

«وأنت لم تذهب بنفسك؟».

«لا.. لم أجد أي داعٍ لهذا!». أجاب وهو في حيرة من أمره.

«معك حق. لم تكن لتجد شيئا». أخبره هولمز، ثم أكمل بعد برهة من الصمت: « تفتح المناور من الداخل باستخدام أحد الأعمدة الطويلة المُصممة لذلك. رأيت اثنين منها في غرفة الآثار المصرية. يسهل بعد ذلك إسقاط حبل من أحد المناور المفتوحة، وترْك بعض آثار الأقدام المزيفة كي يجعلانا نستنتج أن رجليْن قد نزلا من السماء، واختطفا بردية من بين أحضان مومياء، ثم صعدا مجددا وكأنهما ملكان من ملائكة الظلام».

«إن كان الأمر كذلك، فلِمَ يُلقيان بنفسيهما في المتاعب؟».

ابتسم هولمز، ثم قال: «كي نعجز عن معرفة من يكونان. إن هذه ليست جريمة عادية، أيها السادة، بل جريمة خبيثة شنيعة، لم يكتفِ فيها المجرمان بالسرقة، بل قتلا شخصا بدمٍ باردٍ وكأن القتل –بالنسبة لهما– أمرا غير ذي أهمية».

استكمل: «ليس ثمة قيمة للحبل ولآثار الأقدام الزائفة إذا كان هدفهما الرئيسي سرقة البردية. ولكن هذا النوع من التمويه ضروري لهما، إنه جزء لا يتجزأ من لعبتهما؛ فهو يزيد من أجواء الإثارة، ويمكنهما من السخرية من السلطات. وإنني واثق أنهما خططا لقتل الحارس قبل أن يخطوا خطوة إلى داخل المتحف. وأرى أن جريمة القتل هذه لا مبرر لها، غير أنها تضيف بعض الحماس إلى فعلهما الشنيع».

«إذا كنت على حق، فنحن نتعامل مع مجانين إذن!». علّق السير تشارلز.

«أتفق معك إلى حدٍ ما. فأي عاقل سيخلّف وراءه رشوة تقدر بمائة عملة بعد قتله للمرتشي؟! ربما رأيا أنه من الأصلح أن ينفذا اتفاقهما مع دافنتري كاملا.. لا يهم إذا كان ميتا أم حيا، لكنهما وَفَيَا بعهدهما. من الواضح أنهما غنيان، ومجنونان أيضا».

وقبل أن يرد السير تشارلز، رفع هاردكاسل إصبعه في وجه هولمز بغضب، وقال: «هذه مجرد تخمينات».

هز هولمز رأسه وقال بهدوء: «فكر في الأمر.. أولا، لقد تركا أدلة تشير بكل وضوح إلى طريقة دخولهما. نفذت الجريمة بمهارة لدرجة أن أدلتهما بدت كرُموز على أوراق اللعب. ولكن لمحقق خبير مثلي، علمتُ أن كل هذا مُدبّر، وأن كل هذه محاولات لتضليلنا. لقد نجَحت حيلتهم، لأن بعد مرور ثلاثة أيام، لم يتسن لك معرفة أي معلومة عن المجرمين ودوافعهما».

أكمل هولمز: «ثانيا، الشيء الذي سُرِق.. بردية غامضة لا تثير اهتمام أحد غير الخبراء، أو ربما أشخاص غريبي الأطوار في أمسّ الحاجة للحصول على البردية، بأي طريقة، ومستعدين لقتل من يقف في طريقهم. ثالثا، لقد قتل الحارس في مكتبه، ويشير هذا إلى كونه –بطريقة ما– متورط في الجريمة. فالمبرر الوحيد لقتله أنه فاجأ المجرمين بينما ينجزان مهمتهما النكراء. وفي هذه الحالة، كان سيحدث نزاع ينتج عنه فوضى وينتهي بقتل دافنتري، وهذا ليس أسلوبهما على الإطلاق. تذكر أنه ليس ثمة أي آثار للفوضى، وأن المسدس كانت به طلقة واحدة فقط. لقد قتل دافنتري لأنه وثق بمن رشاه.. كان مثل الكبش الذي ينتظر الذبح.. أتاه القاتل بمسدس في يده، و...».

وضع هولمز إصبعين على جبين جنكنز. تأوه الشاب وسقط على كرسيه.

استكمل قائلا: «من المؤكد أن دافنتري كان من معاونيهم، وهذا يجعل لدينا أكثر من شريك في الجريمة.. أعتقد أننا نتعامل مع شخص ذكي وساديّ، شخص مهووس بالبردية ويريدها لنفسه فحسب، ولن يعطيها لغيره. ولكن، لماذا إذن قتل حارسا فقيرا أحمق؟ ربما ليمنع أي فرصة –مهما كانت بعيدة– تمكن أي شخص من تقفي أثره. إنه مجرم خبيث، ولا شك خطير».

«إنك تتحدث بصيغة المفرد الآن، سيد هولمز. ظننت أنهما اثنان كما قلت مسبقا». قال هاردكاسل.

«لا أنكر احتمالية أن يكونا اثنين. لكن التخطيط والدافع...». سكت قليلا قبل أن يوجه نظرة جامدة إلى المفتش، ثم قال: «ثمة عقل مدبر واحد في هذه الجريمة، مهووس لكنه ذكي».

«ومن يكون العقل المدبر إذن؟ أظن أنك لن تشك في البروفيسور موريارتي هذه المرة».

نظر هولمز لهاردكاسل نظرة باردة وهو يرد: «هذه من أذكى ملاحظاتك يا هاردكاسل. لكن عليّ القول أن ذلك المجرم يتشارك مع البروفيسور في براعته، وجرأته، وقسوته أيضا. إنه رجل فائق الذكاء.. رجل يُخشى».

-٤-

حدث غير متوقع

«رأيت ملاحظات كثيرة مدونة على جدول السباقات المُعلق على الحائط، كما رأيت بعض النسخ المهملة من جريدة «السباق» متروكة على الطاولة. استنتجت على الفور أن جنكنز ودافنتري كانا يتراهنان دائما. وكما تعلم يا واطسون، فكل المقامرين مفلسون».

أومأت برأسي وأنا أبتسم.

أشعل هولمز غليونه فانبعثت منه غيوم كثيفة من الدخان طمست وجهه لبرهة.

مرت ساعات على مغادرتنا للمتحف البريطاني، وعودتنا إلى غرفتنا في شارع بيكر. أضيئت مصابيح الغاز مع انقضاء النهار. بدا هولمز، الذي ارتدى ملبس نومه الأزرق، في حالة مزاجية جيدة. ألقى بعود الكبريت في الموقد، وخاطبني قائلا: «إنني لا أعتقد أن حل تلك القضية سيستغرق أياما كثيرة».

«ولكن ثمة العديد من الأسئلة التي ليس لها إجابة حتى الآن».

«بإمكاني أن أجيبها».

«حقا؟». قلت وأنا أحاول ألا أبين الشك في نبرتي.

«ليس ثمة لغز غامض يصعب حله يا واطسون».

«من الجاني إذن؟ من الذي سرق اللفافة؟».

ابتسم هولمز، ثم قال: «أمعن التفكير في المُعضلة بموضوعية ومنطقية.. لقد سُرقت بردية، بينما تجاهل السارق تحفا أكثر قيمة فقط من أجل تلك البردية المهترئة والغامضة. ولذا، فإن من يسعى وراء سرقة اللفافة يريد أن ينال ما تحتوي عليه فقط، لا لقيمتها الأثرية».

«نعم، أستطيع فهم هذا.. ولكنها تحتوي فقط على بعض الكتابات الغريبة التي ترشد لمكان مقبرة ستاف».

«ولفافة الموتى».

«وما الفائدة من هذا وقد حاول الخبراء حل لغزها أكثر من مرة دون جدوى؟ من يقدر على حلها الآن؟».

تنهّد هولمز وقال بصوت تملؤه بعض المشاعر: «واطسون، عليك أن تخرج عن حدود تفكيرك. لا تفكر في الممكن أو المحتمل، بل فكر في ما هو مستبعد وغير محتمل، ولا تغفل عمّا هو واضح».

«عمّا هو واضح!». رددت ما قاله وأنا أهز رأسي. ثم قلت: «أخشى أنك لم تفهمني».

«تحتوي بردية حنت-تاوي على شيفرة. وما الشيفرة إلا وسيلة لإيصال معلومة بطريقة غير مباشرة. وماذا تريد كي تحصل على تلك المعلومة؟».

«مفتاح».

«بالضبط. ولقد علمنا أن سِتاف كان رجلا ذكيا وماكرا، أدرك خطورة وصول سارقي القبور إلى قبر حنت-تاوي، فينبشونه ويتحصّلون على البردية التي تحتوي على تفاصيل مكان قبره ولفافته السحرية. ولذا، فقد وضع شيفرته الخاصة لكي يحمي سره. ولن يستطيع حل لغزها إلا الباحث الشغوف الذي يسعى للخلود. وكان يجب أيضا أن يترك مفتاحا لحل اللغز، وذلك المفتاح هو وثيقة أخرى، ربما مخبأة في مكان آخر، تترقب وصول ذلك المُختار الذي بإمكانه معرفة سر الخلود».

«وهل تظن أن السارق قد تحصّل على المفتاح لرسالة سِتاف؟».

«أجل. ولهذا فإن البردية، التي تتآكل عاما بعد عام داخل المتحف، تعني له الكثير. فكان يجب أن يحصل عليها».

«أعتقد أن كل شيء ممكن».

«أنت الآن تفكر في ما هو أبعد مما تملك من معلومات».

«ربما.. ولكنني لا أعرف حتى الآن كيف يمكن أن يحصل أحد على هذا المفتاح».

«كثيرا ما قرأت عن الآثار المصرية التي تباع في مَحال بيع الحلي والمجوهرات في المدينة. ثمة بعض التجار عديمي الضمير ممن يشترون الآثار المهربة، ومعظمهم لا يعرف الفرق بين الرموز المصرية ورموز حضارة الأزتك*. إنها –في النهاية– تجارة قديمة قائمة منذ قرون».

«إذن فأنت ترجح أن الوثيقة التي بها مفتاح لغز بردية حنت-تاوي قد وصلت إلى إحد المحال التي ذكرتها، ثم اشتراها الشخص الذي يعرف قيمتها؟».

أومأ برأسه وهو يقول: «إنها احتمالية. يمكننا أخذها بعين الاعتبار لنرى إلامَ ستوصلنا».

«يبدو أنه استنتاج رائع».

«إطلاقا.. إنه يناسب فقط كل الحقائق المعروفة حتى الآن. إذا كان اللص هو الشخص الذي أتوقعه فلا بد أنه قد استأجر بعض

---

*االأزتك: حضارة ازدهرت من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر ميلادي فيما يُعرف الآن بالمكسيك.

الرجال لمراقبة هذه الأماكن لكي يُعلموه إذا ما وصل شيء مثير.. شيء عليه علامة ستاف المميز: نصف جعران».

«هل أنت متأكد من ذلك؟».

«ليس بعد. لكن افتراضي هذا وارد جدا».

«إذن فلفافة الموتى هي الغنيمة الكبرى».

«أحسنت يا واطسون».

«ولكن كيف لهذا الشخص أن يبيعها في السوق دون أن يخبر المشتري كيفية تحصله عليها؟».

رمقني هولمز بنظرة حادة. بدا وجهه صلبا وكأنه قد صُنع من الحجارة وهو يخبرني: «إنه لا يريد بيع اللفافة، بل يود استخدامها».

ساد الصمت للحظة بعدما أبدى هولمز ملاحظته..

«هل تلمح إلى أنه يظن اللفافة ستجعله يتغلّب على الموت؟».

«نعم».

«إنه حتما رجل مجنون».

«بلا شك».

«يا لغرابتك! تتكلم وكأنك تعرف من يكون!».

«نعم، أعرفه».

«حقا؟!». صِحت في تعجب.

نفث هولمز دخان غليونه، ورمقني بنظرة المسرور.

«لا تثر غيظي يا هولمز! من يكون؟».

«سيباستيان ملموث».

«ماذا؟».

«هل تتذكره؟».

«بالطبع أتذكره. ولكن على الرغم من كونه فاسقا وغريب الأطوار، إلا أنه من الصعب أن تجزم بأنه قاتل وسارق!».

«شخص في مثل هوسه يستطيع فعل أي شيء. هل تذكر الشعرة الشقراء التي أخرجتها من واقي زناد المسدس، ورائحة العطر القوية التي انبعثت من مقبضه؟ إنها نفس الرائحة التي انبعثت منه عندما جاء إلى هنا. ورغم أن سنة كاملة قد مرت على زيارته، إلا أنني لم أنسَ حرفا من كلماته الغريبة، ولذا فلم يغب ذلك الشاب الخبيث عن نظري».

«كيف؟».

«من الصحف.. لقد عرفت أنه يبحث عن شيء ما.. شيء هو في أمس الحاجة إليه. ولا شك أنه –بسبب أبحاثه الكثيرة عن الموت– قد عرف بأمر بردية سِتاف المشفرة القابعة داخل المتحف البريطاني، ومن ثَم بدأ يبحث عن طريقة ليحصل بها على البردية الأخرى التي بها مفتاح شيفرة ستاف، وبالتالي يصل إلى السر الذي لا يُقدر بثمن. والآن، أعتقد أنه قد توصل بالفعل للمفتاح».

«إذا كان ما تقوله صحيحا، فهو حتما سيتجه إلى مصر ليحاول الوصول إلى لفافة الموتى».

ابتسم هولمز وقال: «إذا تمكن من فك الشيفرة وحل لغز اللفافة أولا.. قد يحصل على المفتاح، لكنه لن يقدر على استخدامه، فهذا يتطلب أن يكون مُلما بالحضارة المصرية القديمة ويفهم طريقة تفكير المصري القديم».

«وماذا تنوي أن تفعل؟».

«في الصباح، سنذهب إلى بيت السيد ملموث. وهناك، سأواجهه بكل ما أعرفه. أنا متحمس لرؤية رد فعله.. ستكون مقابلة مُمتعة».

***

كان صباحا زاهيا في أحد أيام شهر مايو. السماء زرقاء صافية، تتجول فيها غيوم رفيعة متفرقة. اقتربت أنا وهولمز من بيت ملموث في شارع «كرزون». وبينما نحن نقترب أكثر من باب البيت، شعرت بخوفٍ لا يُوصف من هذه المقابلة لسببين: الأول، أن ما قاله هولمز بدا لي مجرد افتراضات، فخفت أن يكون –لأول مرة في حياته– قد ارتكب خطأ فادحا. أما الثاني، فكان لأنني لم أرِد أن أقابل ملموث مرة أخرى. شعرت وكأنني طفل صغير يخشى الظلام. فمهما يكن الخوف من الظلام أمرا غير منطقي، فهو شعور لا شك حقيقي».

دق هولمز الجرس. سمعناه يتردد في أركان البيت البعيدة. وعلى الفور فتح لنا الباب شاب عابس الوجه، له عينان سوداوان، ورغم أن التعب يبدو عليهما، إلا أنهما احتفظا بنظرة متعجرفة. علمت فور رؤيته أنه خادم ملموث.

أخرج هولمز من جيب معطفه بطاقة كان ملموث قد تركها لنا قبل مغادرته لغرفة شارع بيكر. أعطاها للشاب دون أن ينبس بكلمة.

أخذ الشاب يتفحّص البطاقة وعلى وجهه ملامح سخرية. قلب البطاقة ليرى إن كان عليها أي كتابة، ثم مال بجسده ببطءٍ على إطار الباب، ورفع حاجبيه بطريقة مُضحكة، ولوّح بالبطاقة وهو يسأل هولمز: «ما هذا؟».

رد هولمز بصرامة: «من فضلك، أخبر السيد ملموث أنني أود رؤيته بشأن أمرٍ مهم».

طاف شبح ابتسامة حول ملامح الشاب الداكنة المتعجرفة.

«إذا أردت مقابلة سيباستيان حقا، فأنصحك أن تبحث عنه في العالم الآخر». قال وشفتاه الحمراوان تتسعان لتكشفا عن أسنانه البيضاء.

عبس وجه هولمز وهو يقول: «لن تستطيع منعي».

«أخشى أنني أستطيع.. من الواضح أنك لم تعرف الخبر السيئ». رد الشاب بهدوء وهو ينفض ذرة غبار غير مرئية من كمه.

قال أخيرا: «يؤسفني أن أخبرك أن السيد سيباستيان ملموث قد مات».

-٥-

الأمور تزداد تعقيدا

طوال معرفتي بشيرلوك هولمز على مدار سنين، لم أره في نفس حالة الصدمة غير العادية التي رأيته عليها عندما علم بموت سيباستيان ملموث. تجمد مكانه للحظة من أثر الخبر الذي نزل على مسامعه كصاعقة زيوس.. خبر ضرب بكل استنتاجاته عرض الحائط.

«متى حدث هذا؟». سألت الشاب في محاولة مني لأواري تردد هولمز، ولأجل إرضاء فضولي أيضا.

«أول أمس. لقد راح ضحية حادثة إطلاق نار في عزبة أبي في نورفولك.» جاء رده البارد.

«ومن يكون أبوك؟».

«اللورد فيلشو».

«قلتَ حادثة إطلاق نار؟». سأله هولمز، مستعيدا اتزانه.

أومأ الشاب وأجاب بنعم، ولم يبدُ في صوته أي تأثر.

قال: «ذهبنا للصيد مع أحد الخدم، يُدعى بريجز، وعندما وصلنا إلى منطقة بها شجر كثيف متشابك، تاه سيباستيان. ثم سمعنا صوت إطلاق نار. بحثنا عنه ووجدناه ميتا».

«ماذا حدث؟».

هز كتفيه ثم قال: «أصابته طلقة من بندقيته بالخطأ. ولقد أحدث ذلك فوضى».

«إنك لا تبدو متأثرا لما حدث لسيباستيان». علّقت، محاولا إغاظة ذلك الفتى المتغطرس.

«سنموت جميعا يوما ما. وربما كان سيباستيان –من بين كل الناس– سعيدا بخوض تلك التجربة.. التجربة النهائية». ابتسم بخبث. ملامحه لا تزال حادة.

سكت لبرهة، ثم تنفس بعمق وكأنه يسحب كل الهواء من حولنا، وقال: «والآن، أيها السيدان، إذا سمحتما لي، عليّ الذهاب. فهذا الصباح شديد البرودة بحيث لا يسمح للمرء أن يقف على عتبة الباب لينغمس في أحاديث ليس لها فائدة. سُتقام مراسم الجنازة غدا، ولذا فإن لديّ بعض الترتيبات عليّ أن أقوم بها».

وقبل أن يقفل الباب في وجهينا، قال: «ستكون جنازة خاصة، وحضورها بدعوات».

***

ظل هولمز صامتا ونحن في طريق عودتنا إلى شارع بيكر. ملامحه الكئيبة توحي بكم الألم والمذلة التي أحس بهما حينما أدرك أنه أخطأ في استنتاجاته.

وعندما وصلنا إلى شارعنا، حاولت أن أخفف عنه قليلا.

أخذ نفسا عميقا قبل أن يرد عليّ قائلا: «وفِّر تعاطفك يا واطسون، فموت ملموث لا يغير الحقائق. لا زال هو من قتل دافنتري وسرق البردية من المتحف».

«وكيف لك أن تثبت ذلك الآن؟!».

أشار إلى جبهته وهو يقول: «إن رأسي يحمل الإثبات، لكنه لم يلده بعد».

أمسك بذراعي ثم قادني مبتسما إلى باب الغرفة وهو يقول: «هناك الكثير من التفاصيل التي لم نعرفها بعد. لكنني متأكد أنني على الطريق الصحيح. حتما ستحدث بعض الأمور التي ستكشف لنا ما لا نعرفه».

لما دخلنا غرفة الجلوس، تفاجأنا بعميلةٍ في انتظارنا. شابة، حسنة الملامح، ترتدي فستانا أخضر أنيقا من القطيفة. نهضت من مقعدها بجانب الموقد لتحيينا. لفت نظري طولها، وقوامها النحيل، وشعرها نحاسيّ اللون المصفف بعناية، وعيناها البنيتان اللتان يبدو فيهما التحدي.

«السيد هولمز؟». قالت في تردد ونظرها يتأرجح بيني وبين هولمز.

«هذا أنا». رد هولمز وهو يخلع معطفه ويلقي به على الكرسي الخشبي الذي بجانب مكتبه. أضاف: «وهذا صديقي ومساعدي الدكتور واطسون. وأنتِ الآنسة...؟».

«كاتريونا آندروز». قالتها بوضوح وثقة. ومع هذا لاحظت عليها بعض التوتر الذي زعمت بأنه ليس من طبعهاً.

«عاودي الجلوس، آنسة كاتريونا. هل تودين شرابا كي يُنعشكِ؟ ربما كوب من شاي؟».

هزّت الشابة رأسها وقالت: «لا، شكرا. أريد فقط أن أشرح سبب وجودي هنا».

ألقى هولمز بنفسه على مقعده، ثم أشار لي أيضا بالجلوس.

«كلنا آذان صاغية.. خذي وقتكِ واشرحي مشكلتكِ بوضوح وبالتفصيل». قال هولمز، ثم تراجع في مقعده وأغمض عينيه.

على عكسه، انحنت هي للأمام وبدأت تقص حكايتها. تحدثَت بصوت واضح وعذب، علمت من لكنتها أن لها أسلافا اسكتلانديين.

قالت: «كما أخبرتكما، أنا كاتريونا آندروز، ابنة السير أليستير آندروز».

«عالم الآثار؟». سألتها بصوتٍ عالٍ.

أجابت بنعم. خارت قواها، وطأطأت رأسها، ثم حاولت تمالك نفسها وبحثت في حقيبة يدها الصغيرة عن منديل كي تمسح الدموع التي بدأت تتساقط من عينيها. قالت: «إن أبي.. اختفى».

لم يبدُ أن هولمز تفاجأ مما قالته، بل أومأ برأسه مُبديا تفهمه دون أن يفتح عينيه. ثم قال بهدوءٍ: «أستسمحكِ أن تقصّي حكايتكِ من البداية».

هزّت الشابة الشجاعة كتفيها، ثم أعادت المنديل إلى حقيبة يدها وبدأت تحكي:

«لقد ماتت أمي بعد ولادتي بفترة قصيرة. وألقيت مسؤولية تربيتي على عاتق والدي. ولهذا فأنا قريبة منه، على عكس معظم البنات. نقيم معا في فِيلا فخمةٍ في منطقة سانت جونز وود، وأعتبر نفسي مساعدته؛ أكتب له

أوراقه، وأنسِّق له القائمة التي تضم مجموعة الآثار الضخمة التي جمّعها خلال بعثاته الطويلة».

أكملت: «كانت علاقتنا جيدة إلى أن تغيّر مؤخرا وبدأ يتصرّف بغرابة؛ كان يطرد أغلب الزائرين، ويقضي معظم وقته وحيدا في مكتبه. ومن حوالي أسبوع، بدأ يأخذ طعامه معه إلى المكتب حتى لا يغادره. وكان يخرج أيضا في وقتٍ متأخر من الليل ولا يعود إلا في الصباح. وعندما سألته عن بعثاته الليلية تلك، أخبرني بصرامة أن الأمر يخصه وحده».

هزت رأسها في حزنٍ ثم أتبعت: «لم يكن هذا أبي الذي أعرفه.. لطالما تشاركنا كل شيء معاً، لكنه الآن يتجنبني. أظن أنكما تستطيعان تخيل قدر الألم الذي أشعر به بسبب تصرفاته الغريبة.. كأنه شخص آخر غير أبي الذي أعرفه».

استكملت: «لم يعد للبيت منذ البارحة، لم ينم في سريره ولم يترك أي رسالة لأعرف أين ذهب. تملكني القلق بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكنت على وشك أن أعلم الشرطة حينما وصلني خطاب في الساعة الرابعة بالبريد».

أعطتني ورقة مطوية عليها هذه الكلمات:

«عزيزتي ك..

سأبتعد لبعض الوقت.

سامحيني لأنني أخبركِ بغيابي، لكن صدقيني لديّ أسبابي.

لا تقلقي عليّ، فأنا بأمان وسلام. ولا تعلمي الشرطة –تحت أي ظرف– بغيابي.

سأشرح لكِ كل شيء فور عودتي.

كل الحب».

«ما هذه الرسمة؟». سألتها، مشيرا إلى رسمة بدا أنها خُطّت سريعا، مرسومة في موضع الإمضاء.

«لا أعلم مدى معرفتك بعلم المصريات، دكتور واطسون، ولكن هذا الإله تحوت، إله الحكمة، الذي يصوّر برأس أبو منجل، والذي زعم قدماء المصريين أنه من علمهم الكتابة. هذا هو توقيع أبي.. عندما كنت صغيرة، اعتاد أن يرسمه لي ونحن نلعب معا. وعندما كبرت صار كشيفرةٍ بيننا. ولهذا أعلم أن تلك الرسالة ليست مزيفة».

قال هولمز: «يمكن تعلم تقليد التوقيعات، مهما كانت غريبة ومعقدة. ألا تشكين في الخط؟».

«إطلاقا. أنا متأكدة أن هذه الرسالة من أبي».

«لقد قلتِ أن أباكِ كان يطرد أغلب الزائرين».

أومأَت برأسها.

«لكن ليس الجميع».

«ما عدا شخص واحد جاء إلينا مرتين، ودعاه أبي لمكتبه فورا».

«هل تعرفانه منذ زمن؟».

«لا. لم أره قبل زيارته لنا. أنا لا أعرف حتى اسمه».

«صِفيه لنا إذا سمحتِ».

«هو شاب، يبلغ الثلاثين من عمره تقريبا، حسن الملبس حد البذخ، شعره أشقر طويل ووجهه دائم الشحوب».

«يا إلهي! هولمز...». صِحت عندما ارتسمت صورة سيباستيان ملموث في ذهني.

وضع هولمز أصابعه على فمه، وقال: «أليس هذا مذهلا يا واطسون؟ والآن، آنسة كاتريونا، هلا سمحتِ لي أن أطلع على الرسالة؟».

مدت يدها بالورقة الصفراء الباهتة، فأخذها هولمز وبدأ يتفحّصها مُستعينا بعدسته المكبرة.

«الخط غير منتظم وبه الكثير من الانحناءات.. من الواضح أن الرسالة قد كُتبت تحت ضغط. وثمة خمس بقع حبر متناثرة، مما يشير أيضا إلى أن الرسالة لم تكتب بإرادة كاتبها، بل أُمليت عليه».

رفع هولمز الورقة إلى النافذة وسأل الآنسة كاتريونا: «هل هذه الورقة من دفتركِ الخاص، آنسة كاتريونا؟».

«لا، فأبي لا يحب إلا الورق الأبيض».

«إنه نوع ورق باهظ الثمن. سعر الورقة أربعة بنسات تقريبا، مما يعني أن الخاطفين أغنياء».

«خاطفون؟!». صرخت أنا والآنسة كاتريونا في اللحظة ذاتها.

ابتسم هولمز ثم قال: «نعم، فكل الأدلة –رغم قلتها– تقودني إلى استنتاج واحد فقط، هو أن أباكِ مخطوف».

في بعض الأحيان يكون هولمز مهتما باستعراض قدراته على التحليل والاستنتاج لدرجةٍ تنسيه مدى تأثير كلامه على من يخاطبه.

بوجهٍ شاحب، أمسكَت بذراعَي كرسيها ومالت إلى الأمام نحو هولمز. بدا في عينيها بريق لم يزُل رغم صدمتها.. بريقٌ أظهر مدى ثباتها وشجاعتها.

«لا بد أنك لا تعني ما تقوله، سيد هولمز. فمن الذي يريد خطف أبي؟ ولِمَ؟ ثم إنه لم يرد ذكر أي فدية في الرسالة. لا شك أنك أخطأت».

«لا أظن ذلك. ولكنني لا أعتقد أن حياة أبيكِ في خطر حاليا».

وضعت يدي على كتف الشابة محاولا أن أطمئنها. وعبستُ في وجه هولمز وقلت له بحدة: «كُف عن قول ألغازك هذه يا هولمز. فالآنسة كاتريونا لها كامل الحق في أن تحظى بتفسير واضح لِما تقول».

«بالطبع». رد وقد بدا عليه الاقتناع.

«إذا كان أبوها قد خُطف حقا، فلماذا لم يتواصل معها الخاطفون؟».

«لأن لديهم الآن ما يريدونه.. ليس المال.. بل عالم متخصص كالسير أليستر».

«معذرةً، سيد هولمز، أنا في حيرة من أمري. اشرح لي كل شيء بوضوح من فضلك».

«إلى الآن، لا أستطيع الوثوق بكِ، آنسة كاتريونا، لكنني أؤكد لكِ أن...».

لم تتسنَّ لهولمز فرصة لإتمام كلامه. فقد تبدّل وجه زائرتنا، ونهضت على الفور، بجسدها الذي يرتعش من الغضب، وقاطعت هولمز ملوّحة بيدها بعنفٍ. لمحت نارا تشتعل في عينيها، وحُمرة تعتري خديها، وصاحت بعصبيةٍ: «إن ما قلته ليس كافيا! إذا تعلم شيئا عن اختفاء والدي، فمن واجبك أن تخبرني. أنا لست طفلة لا تتحمل وقع الأخبار السيئة، مهما تكن. أنا بالغة ومسؤولة.. ولطالما رافقت أبي في بعثاته، وتحمّلت ظروفا قاسية، وقمت بمهامٍ ترتعد لها أجساد الكثير من الرجال. قد تكون متمكنا من عملك، سيد هولمز، لكن لا تخطئ بظنك أن كل النساء ضعيفات وغبيات، ويجب أن يحميهن الرجال من صفعات الحياة القاسية، لأنهن لسن كذلك. أؤكد لك أنني لست كذلك على الأقل. ولن أسمح لشخصٍ مهما كان أن يتعالى عليّ أو يعاملني كغبيةٍ. ولذا، فأنا أطلب منك أن تخبرني كل ما تعرفه عن الأمر».

إنه لا شك يوم عصيب على هولمز.. رأيت عظم فكه يبرز حتى كاد يخترق وجهه، وفي عينيه تموج نار الغضب. لكنه ما لبث أن تمالك أعصابه، ومد رجليه وهو يتراجع بظهره إلى الخلف، ويضحك بينه وبين نفسه.

«كيف لي أن أرفض طلبا كهذا يا واطسون». قال وفي نبرته شيء من اللا مبالاة التي لم يستطع مواراتها.

لم أجِبه، بل أشحت بنظري عن كليهما. في الواقع، لم أرِد أن أتدخّل في محادثتهما المزعجة. ومع ذلك، شعرت بالرضا بأن امرأة قد أوقفت صديقي عند حده. فمثلما قالت لي حبيبتي ماري يوما، أن بالرغم من مهارات هولمز العقلية، إلا أنه لا يفهم عقل المرأة، بل ويعامل جميع النساء بنفس المعاملة. لكن تلك الشابة أثبتت له أنه مخطئ في تفكيره.

«إنني أنتظر، سيد هولمز».

تنهّد مستسلما، وقال: «إنكِ تطلبين مني ما يفوق طاقتي، آنسة كاتريونا». وبسرعةٍ رفع يده ليمنع فيض الاعتراض الذي كاد ينهال عليه منها، وأكمل: «سأخبرك بما أعتقد أنه صحيح، لكن اسمحي لي أن أحتفظ بنظرياتي غير المؤكدة إلى أن تثبت صحتها فيما بعد».

«حسنا». ردّت ببرودٍ، وظلّت متصلبة بلا حركة.

«هل رافقتِ أباكِ في بعثته التي اكتشف خلالها مقبرة حنت-تاوي؟».

نظرت له متحيرة من سؤاله.. ثم ردت: «لا، لكنني أعرف عنها كل شيء. كما ساعدته في التحضيرات لعرضها في المتحف البريطاني. ولكن ما علاقة هذا باختفاء أبي؟».

«إنه أهم أمر! وعلى الرغم من معرفة أبيكِ الغزيرة بعلم المصريات، إلا أنه أخفق في الوصول إلى تفسير لما هو مكتوب في بردية حنت-تاوي».

«نعم. لقد أطاحت بعقله».

«هل كان يعلم أن ثمة مفتاحا مفقودا؟».

تبدّلت ملامحها الصارمة وضحكت بسخرية وهي تقول: «لقد فكّر في احتمالية أن يكون هناك مفتاح، إلى جانب احتمالات أخرى».

«وهل تناقش مع زميله في البعثة، السير جورج فافيرشام؟».

«لا، فهما عدوان. كل منهما يسعى لحل اللغز قبل الآخر. ودائما ما ادّعى السير جورج أنه قد نجح وأرسل لأبي برقيات يسخر فيها منه. وكان أبي يقول لي: دعيه يهذي، فلو كان قد نجح حقا، لسافر بسرعة البرق إلى مصر كي يحصل على لفافة الموتى».

«إن التباهي الزائف قد يدفع المرء إلى القتل والسرقة، أليس كذلك يا واطسون؟».

«معذرة يا هولمز. لقد فقدت تركيزي».

«أتتذكّر التقرير الصحفي الذي قرأته لي بالأمس، عندما زعمتُ خطأً أنها حادثة تافهة؟ اقتُحِم منزل السير جورج فافيرشام ولكن لم يُسرق منه شيء ذو قيمة. أتذكر؟».

«أجل، أجل. وقد قتل».

«إذن هي حلقة موصولة. لا شك أن هؤلاء الأوغاد كانوا يأملون أن السير جورج سيساعدهم بترجمته للبردية المفتاح التي ستجعلهم يفهمون ما هو

مكتوب في بردية حنت-تاوي. وعندما فشل، أو ربما رفض، قتلوه».

فرك هولمز يديه بحماسٍ ثم أكمل: «أسمعتِ، آنسة كاتريونا؟ هناك بعض الأشخاص من عديمي الضمير يفعلون كل ما بوسعهم ليحصلوا على لفافة الموتى، حتى وإن لزم الأمر أن يسفكوا الدماء. أنا متأكد أن بردية حنت-تاوي، التي عمل عليها والدكِ، والتي تحتوي على تفاصيل مكان اللفافة، لا فائدة لها دون بردية المفتاح.. بردية وضع فيها ستاف الحل بنفسه. وأعتقد أن الجناة قد حصلوا على المفتاح بالفعل».

هنا قاطعته قائلا: «إذا كان ما تقوله صحيحا، فلماذا لم يبحثوا عن مكان لفافة الموتى بعد؟».

رد هولمز: «عزيزي واطسون، لأنهم استخفوا بقدرات ستاف مثلي. إن بردية المفتاح نفسها بها ألغاز يجب أن تحل أولا. ليست صعبة مثل بردية المتحف، لكنها في الوقت ذاته لا تسهُل على عقلٍ محدود وغير مؤهّل».

«أعتقد أنني فهمت ما تعنيه، سيد هولمز. هؤلاء المجرمون يحتاجون أبي حقا كي يترجم لهم البردية».

«هذا تصوري للقضية.. ولهذا لم يطلبوا فدية».

«إذا صح كلامك، فماذا سيحدث لأبي عندما ينتهي من العمل المطلوب منه؟».

سكت هولمز للحظة وحك ذقنه، ثم أردف: «إن ردي هذا محض توقع، ولكن مما استنتجته من معلومات عن خاطفي أبيكِ، فأظن أنهم سيتحفظون عليه إلى أن يحصلوا على لفافة الموتى. وقتها، سيتأكدون أن أباكِ قد زوّدهم بالمعلومات الصحيحة اللازمة».

عاودَت الجلوس في مقعدها.

نظرتُ إلى هولمز بعينٍ قلقة.

أكمل بنبرة أرَق: «وعندها، سأقبض عليهم أنا وواطسون».

«هل تظن ذلك حقا؟». سألت الآنسة كاتريونا في يأسٍ، وكأنها سمعت السؤال الذي دار في عقلي.

«نعم.. أعتقد ذلك». رد هولمز.

لم تلحظ الشابة الغموض وراء رده وابتسمت. ثم قالت: «أرجوك أن تعيد أبي سالما، سيد هولمز».

لوهلةٍ سقط قناع الثقة عن وجهها، كاشفا الخوف.

«سنفعل ما بوسعنا كي تلتقيا مجددا». قلت مبتسما.

قال هولمز بنبرةٍ خاليةٍ من أي مشاعر:»وأنا أوكد ذلك».

***

عندما رحلت الآنسة كاتريونا، حاملةً في قلبها وعد هولمز بإعلامها فور معرفته بأي معلومة عن أبيها، صِحت في وجهه مُفضيا ببعضٍ من غضبي المكبوت.

«يمكنك أن تخفي بعض التفاصيل عن العملاء، لكن عني؟!».

«هدِّئ من روعك يا صديقي العزيز. ولا تلمني إذا سارت الأحداث أسرع مما توقعت».

«ترى ما فائدة وجودي هنا معك إذا لم تثق بي؟».

«لكنك تعلم كل شيء يا واطسون. ما الذي تظن أني أخفيه عنك؟».

«لقد تحدثت بصيغة الجمع.. قلت (مجرمين). من هم وقد مات ملموث؟!».

«يمكنني أن أخفي أسرارا، لكنني لن أشرح لك ما هو واضح! وإذا فعلت، هل ستتعلم؟».

«هولمز!».

«أرجوك، واطسون، لا تبدُ حزينا هكذا، إنني أعلم أنك رجل المهام الصعبة. والليلة سأحتاج مساعدتك في مهمة».

«أي مهمة؟».

«سنقتحم منزل ملموث». قالها بفخرٍ، ثم أشعل غليونه ورجع للخلف في مقعده.

-٦-

عملٌ ليليّ

لم تكن هذه المرة الأولى التي يورطني فيها هولمز لكسر القانون. ومع هذا، فإن المغامرة التي أخبرني بها صديقي بدت شنيعة.

«نقتحم منزل ملموث!». كررت ساخرا، ثم قلت: «لا تتوقع أن آخذ اقتراحك هذا على محمل الجد».

«إننى لا أمزح في أمور كهذه. تخلَّ عن مبادئك للحظة وفكر في ذلك الوغد الذي لم يردعه أحد حتى الآن.. أظن أنني وصفته بما يستحق».

«هل تعتقد حقا أنه ما زال على قيد الحياة؟».

لم يُجِبني هولمز بشكلٍ مباشر، بل أشار بطرف غليونه إليّ وقال: «سأقتحم المنزل الليلة معك أو بدونك، وسأرى أي جثة قد وُضعت مكانه في النعش».

ارتعش جسدي..

«يا إلهي! إن الأمر ليس فقط خطيرا ومخالفا للقانون، لكنه مخيف أيضا!».

ابتسم هولمز ثم قال: «وهل ثمة أسباب أفضل من هذه للقيام بالمهمة؟».

***

دقّت أجراس ساعة بيج بن الضخمة معلنةً عن انتصاف الليل. أحسست بهزّاتها تنبعث في الأفق بينما أغادر أنا وهولمز غرفة الجلوس الدافئة، لننغمس في صقيع الليل في الخارج. وعلى الرغم من خوفي من خوض تلك المغامرة، إلا أن هولمز يعلم أنني لن أرفض طلبه. استبدلت على الفور فانوسا أسود اللون، وإزميلا، ومسدسا بمحتويات حقيبتي الطبية.

كان هولمز قد غادر شارع بيكر في وقتٍ متأخرٍ من الظهيرة، مرتديا ملابس قسٍّ حسير البصر، وشعرا رماديا مستعارا، ليُعاين منزل ملموث عن كثب. وعندما عاد وخلع زيه التنكري، قال لي بثغرٍ متبسِّم: «لا أحد يشك في قسٍّ يحدق في المنازل رغم غرابة الأمر».

طرق هذه المدينة العظيمة تبدو مهجورة الآن.

رأينا بعض العرابدة يقفون في الطريق، ومرّت أمامنا عربة يجرها حصان حول رقبته طوق من أجراسٍ تدق. وعندما ابتعدنا عن كل ذلك، مشيْنا بمفردنا وكأننا قد امتلكنا الطريق. مضينا معا دون أن يلفظ أحدنا حرفا. القلق والخوف يتغذيان على خلايا عقلي. أما وجه هولمز، فقد بدا عليه الحماس لِما هو قادم. وبعد ربع ساعة، اقتربنا من وجهتنا.

على الجانب الآخر، وقفنا ننظر إلى البيت الذي كنا قد زرناه في الصباح، تحفنا الظلال من كل جانب. بدا لنا البيت من الخارج كوجهٍ داكنٍ بلا ملامح، فلم نرَ أي ضوءٍ ينبعث من النوافذ، ولم يكن ثمة أي دليلٍ على أن للبيت سكانا.

«ثمة حديقة صغيرة خلف البيت. إذا تسلقنا الحائط الملتف حولها، سيسهل علينا الدخول من إحدى نوافذ الطابق السفلي». قال هولمز بسرعةٍ وبثقة بالغة، وكأنه يملي طلباته لنادلٍ في مطعم.

شعرت بالخوف فهمست في أذنه سائلا: «ماذا لو رآنا أحدهم وأمسك بنا؟».

رد باقتضاب: «لم أضع هذا في حساباتي».

عبرنا الطريق وذهبنا إلى الجانب الخلفي من البيت. مضينا في ممر ضيق به مصباح وحيد ينبعث منه ضوء خافت، وعندما وصلنا إلى آخره، وجدنا أنفسنا واقفيْن أمام حائط طوبي قديم يصل ارتفاعه إلى عشرة أقدام.

«والآن، سأساعدك على تسلق الحائط. وعندما تستطيع الوقوف عليه بثبات، سأمرر لك حقيبتك».

تنهّدت ببطءٍ ثم قلت: «هل أنت متأكد من ضرورة ما نقوم به؟».

«بكل تأكيد. دعنا الآن ننجز مهمتنا».

وفي غياب المرونة والقوة البدنية اللتين حظيت بهما في شبابي، فقد استغرقت بعض الوقت حتى تمكنت من تسلق الحائط، والتقطت حقيبتي من هولمز الذي وقف مادًّا يديه، ثم قفزت إلى الجانب الآخر. لم يجد هولمز صعوبة مثلي، بل تسلق الحائط بكل سهولة، وبينما وقفت لألتقط أنفاسي لِما بذلته من مجهود، رأيته يقفز للأرض بخِفة ووقف بجانبي.

أشعل هولمز المصباح، وسِرنا نحو المنزل. تبيّن لنا في ضوء المصباح شكل المبنى. رأينا بابا في الجهة اليسرى يؤدي إما إلى المطبخ أو القبو، وبضع سلالم قصيرة أمام الباب الرئيسي، وشرفة في الطابق الأرضي إلى جانبها نافذة كبيرة مقوسة على الجهة اليمنى.

صعد هولمز السلالم ثم أشار نحو النافذة الكبيرة وهمس لي وهو يعطيني المصباح: «سندخل من هنا. أمسك المصباح بثباتٍ وسأفتح النافذة بالإزميل».

وبمهارة لصٍ محترف، أدخل رفيقي الإزميل في الحافة السفلية للنافذة وانحنى ثم قام ببعض الحركات السريعة، حتى انفتحت النافذة على مصراعيها. قفزنا بسرعةٍ إلى الداخل ووقفنا كتمثالين في العتمة منتبهيْن لأي صوت طفيف قد يصدر عن حركة. ولكننا لم نسمع شيئا سوى السكون يهمس في آذاننا.

وبعد لحظات، اقترب هولمز مني وتحدث بصوتٍ خفيض قائلا: «لا شك أن النعش موضوع في إحدى غرف الطابق الأرضي، غالبا في غرفة الجلوس. اتبعني».

أمسك بيدي وشدني بلطفٍ وقادني نحو الباب مخترقا الظلمات التي تحفنا من كل جانبٍ. لاحظت قدرته المذهلة على الرؤية في الظلام. وبالاستعانة بشعاع الضوء المنبعث من المصباح وحدسه الذي يشبه حدس القطط، سرنا نحو المدخل بسلاسةٍ حتى وصلنا إليه في غضون ثوانٍ قليلة. رأينا شعاع ضوءٍ خافت ينبعث من نافذة فوق الباب الأمامي قاذفا ببعض الظلال المتفرقة على الجدران. توقفنا واسترقنا السمع، ولكن هذه المرة لم يهمس السكون في آذاننا، بل سمعنا دقات ساعة عتيقة مثبتة على الحائط في آخر الردهة. حرّك هولمز المصباح يمينا ويسارا مستكشفا ما يحيط بنا. على طاولة الردهة، أسفل مرآة مزخرفة رائعة المظهر، ثمة زهرية بها ورورد بيضاء شاحبة، بدت في العتمة من بعيدٍ كأشباح مطأطأة الرأس. لا بد أنها ورود للميت.

كان ثمة أكثر من باب بالردهة، فتحنا منها اثنين، ورأينا ما بالداخل على ضوء المصباح. كان أول باب هو باب غرفة الموسيقى، والثاني باب غرفة المعيشة. وفي محاولتنا الثالثة فتحنا بابا اتضح لنا أنه باب الغرفة التي كنا نبحث عنها.

تسميتها بغرفة الجلوس هي لا شك تسمية ظالمة، فعلى الرغم من ضوء المصباح الضعيف، إلا أنني لاحظت أن تلك الغرفة دائمة العتمة. ستائر الغرفة سوداء مصنوعة من القطيفة، حوافها ذهبية اللون، وورق الحائط شكله غريب وكئيب للغاية؛ عليه رسومات أشبه بالنقوش لوجوه قبيحة تبتسم وكأنها شياطين أو مسوخ مرعبة. ورائحة العطر الجذابة، التي ذكرتني بشرق أوروبا، ملأت ثنايا الهواء حتى كادت –من قوتها– أن تخنقنا. ثمة أيضا سجادة باهظة الثمن موضوعة على الأرض، ومن حولها قطع أثاث غالية بدت وكأنها درجات مختلفة من الرمادي والبني الداكن والأسود. وفوق رف الموقد لوحة زيتية لمالِك المنزل. كانت اللوحة الزيتية على الطراز القوطي، تصوِّر سيباستيان ملموث وهو واقف تحت ضوء القمر، وفي خلفية اللوحة قلعة مدمرة. وجهه الشاحب يعبس في وجهيْنا بغِلٍّ وكأنه حيّ ويعلم أننا اقتحمنا منزله. شعاع ضوء من المصباح تعامد على وجهه فلمعت عيناه من الغيظ.

كان كشبحٍ مخيف تنفر الأعصاب من رؤيته.

استغرق الأمر ثواني لألحظ كل هذا، فما يهم حقا، وما جئنا من أجله، هو النعش الأسود المصنوع من خشب البلوط الذي يستريح على حاملات في وسط الغرفة. وجَّه هولمز ضوء مصباحه على غطاء النعش، مضيئا لوحا فضيّا صغيرا منقوشة عليه هذه الكلمات:

«سيباستيان ملموث حي هنا ١٨٦٦- ١٨٩٦».

قال لي هولمز وعلى وجهه ملامح الاشمئزاز: «ساعدني في رفع الغطاء».

«لكن من المؤكد يا هولمز أنه...».

«هذا هو سبب مجيئنا. نعش مغلق ليس دليلا كافيا، فمن السهل أن يكون فارغا».

لم يكن فارغا.

على الرغم من كل ما شاهدته في أفغانستان من سفكٍ للدماء وجروح غائرة، إلا أنني كدت أتقيأ عندما وقعت عيني على ما بداخل النعش. صدمة جعلت جسدي يرتعد. ولقد علمت مسبقا بأن ملموث قد مات في حادثة إطلاق نار، لكن برغم هذا فلم أكن مستعدا لرؤية منظر جروح تلك الجثة المشوهة المخيفة.

النصف العلوي من منطقة الصدر يكاد يتلاشى تماما، وليس ثمة وجه ظاهر، بل هو قناع من أنسجة حمراء داكنة تلمع في ضوء المصباح، وحتى الرأس خالٍ تماما من الخصل الشقراء مما يزيد من فظاعة المنظر.

لم يتفاجأ هولمز على الإطلاق، بل تنهّد وقد بدا عليه الارتياح.

«حادثة إطلاق نار أثناء الصيد؟ هذا غير معقول. تشوهات كهذه تحتاج عددا لا بأس به من الرصاصات. إنه أمر متقن يا واطسون.. متقن حقا». قال هولمز وهو يميل على الجثة ليفحص اليدين بعناية. ثم سلط الضوء على ما كان يوما ما وجها كاملا، وفحص الأسنان التي تبرز من قناع الأنسجة المروع.

«أنا متأكد أن أيا يكن من في النعش فهو بكل تأكيد ليس سيباستيان ملموث».

«وما الذي جعلك متأكدا هكذا؟!».

«ثمة أكثر من دليل على صحة كلامي. انظر إلى اليدين». قال وهو يرفع إحداهما ويوجِّه نحوها ضوء المصباح، ثم أكمل: «أترى مدى خشونة يده وقذارة أظافره؟ هذه ليست يد شخص أنيق رفيع الذوق، بل هي يد عامل كادح». ثم أسقط الذراع واقترب أكثر من الجثة وأعاد بعض الأشلاء التي حول الفم إلى أماكنها.

«يبدو أن أسنانه لم تلقَ العناية التي تليق بشابٍ غني، فبقايا الأسنان السوداء والبنية تلك تبين أن هذا الشخص كان مهملاً ولم يهتم بنظامٍ غذائي. إن هذا، يا صديقي، ليس إلا بديلا لسيباستيان ملموث، استُخدِم كي تخفى عنا حقيقة أنه على قيد الحياة».

«ولكن ما فائدة الخداع إذن؟!».

«لا أود أن أبدو مغرورا، ولكنني أعتقد أن من فعل هذا أراد خداعي تحديدا. فإذا كان المشتبه به الرئيسي ميت، فعلى المحقق أن يبحث عن مشتبه به آخر».

«بينما يكمل هو أعماله الشنيعة ببالٍ مستريح».

«بالضبط».

«من إذن هذا التعيس الذي بداخل النعش؟».

لم يسمح لي القدر أن أتلقى إجابة. فعندما كان هولمز على وشك الإجابة، سمعنا أصواتا قادمة من الطابق العلوي. كانت أصوات أشخاص يتحدثون.. شعرت بثقلٍ في قلبي.

يبدو أن أحدهم قد سمعنا.

أطفأ هولمز المصباح على الفور وهمس: «بسرعة، ساعدني على غلق النعش!».

ومثل العميان، صارعنا الظلام الحالك ورفعنا الغطاء وأعدناه إلى مكانه. سمعت صوت خطى أحدٍ ينزل السلم. تجمدت في مكاني للحظات حتى شدني هولمز من يدي نحو النافذة وسحب الستائر السوداء الثقيلة. وفجأة، كسا الضوء الكهربائي الغرفة بأكملها.

دخل أحدهم الغرفة. عرفت من صوت خطواته الثقيلة والطويلة أنه ذكَر. سمعته يقترب من النعش ويسحب مسدسه. وعندما اقترب صوت خطواته من مكان اختبائنا، وضع هولمز إصبعه على فمه وهو ينظر لي.

تحرّكت الستائر وكأن ذلك الشخص قد وضع يده عليها.. يد ستكشفنا في أي ثانية.

شعرت بفمي يجف، وقلبي كاد ينفجر.

كنت مترقبا أن ننكشف، إلى أن صاحت امرأة من إحدى الغرف.

«ماذا بكِ يا جوليا؟». علا صوت الرجل الذي وقف على مسافة أقل من خطوتين منا.

«لقد اقتحم أحدهم المنزل، براندون! نافذة غرفة الطعام مفتوحة!».

نظر لي هولمز وحرّك شفتيه وكأنه يقول اسم «بتلر».

«أنا آتٍ». رد عليها الرجل، ثم أرخى قبضته الممسكة بالستارة فارتجفت.

«حان وقت مغادرتنا!» تمتم هولمز، ثم أمسك بالإزميل، وبمهارةٍ فائقة فتح النافذة التي خلفنا. وبكل ما لدينا من سرعة، تسلّقنا حافة النافذة وقفزنا

إلى الخارج وانغمسنا في صقيع الليل مرة أخرى. أغلق هولمز النافذة دون أن يحدث أي صوت، وفي غضون ثوانٍ كنا خارج المنزل نمشي على الرصيف متجهيْن إلى شارع بيكر. شعرت بأننا كهؤلاء العرابدة الذين رأيناهم في طريق ذهابنا.

وعندما وصلنا إلى شارع بيكر، قال هولمز: «حسنا.. علينا أن نخلد إلى أسرتنا بأسرع ما يمكن، لأننا سنستيقظ مبكرا.. سنذهب في رحلة قطار طويلة غدا».

«إلى أين؟».

«نورفولك». جاء رده.

-٧-

رحلة إلى قرية

كان فجرا باردا، والسماء مليئة بالغيوم الكثيفة التي كستها بالرماديّ. انشق الفجر وقطارنا يتحرّك من محطة ليفربول صباح نفس اليوم.

***

كنت متعبا للغاية ولم يكن لديّ طاقة كافية لأسأل عن سبب بقائنا لفترة قبل أن نسترق بضع سويعات نرتاح فيها قبل مغادرتنا. ومع هذا، فلقد افترضت أنني أعلم جزءا من خطط هولمز، وأن النوم لسويعات قليلة ليلا سيزيد من تركيزنا ونشاطة عقلنا، لكنني كنت مخطئا. فقد نمت أربع ساعات فقط، ثم شعرت بيد هولمز تهز كتفي الساعة الخامسة لتوقظني.

«أفق يا واطسون. لدينا قطار علينا اللحاق به. لا تجعل الذئاب تظن أن الصيادين قد تأخروا في مطاردتهم».

«الصيادون!». رددت بصوت ما زال يتملك منه النعاس، ثم أكملت بينما لم أنفك من أحضان وسادتي: «ألَم تسمع عن الحكمة التي تقول (دع الكلاب النائمة وشأنها فذلك أفضل لهم ولكَ)؟».

أصدر هولمز صوتا لم أميز إذا كان ضحكة أم نخرة، ثم صاح وهو يخرج ويغلق الباب بعنفٍ: «سنغادر خلال نصف ساعة».

***

عندما عبر القطار حدود لندن، رأيت الشمس تصارع السحاب الأردوازي لتتجلى على الأرض رغم شحوبها. واستطعت أخيرا أن أنتصر على النعاس. جلس هولمز في زاوية مقصورة الدرجة الأولى التي حجزناها، ينظر من النافذة ويدخن سيجارة.

قلت له: «أعتقد أن زيارتنا لمدينة نوريتش لها صلة بحادثة عزبة اللورد فيلشو».

«بالضبط يا واطسون. ذلك الشاب المتغطرس الذي رأيناه البارحة في منزل ملموث أعطانا بحماقته معلومات لم يكن لنا أن نعرفها. اسمه توبياس

فيلشو.. إنه حتما أحد أتباع ملموث الحقير».

«أتشُك أنه متورط معه في الجريمة؟».

«بل أنا متأكد من ذلك».

«إنه شريك ملموث إذن».

«نعم، وكلاهما اشترك في قتل ثلاثة رجال».

«ثلاثة؟!».

«الحارس الليلي الذي يُدعى دافنتري، والسير جورج فافيرشام، والتعيس الذي يسكن نعش ملموث الآن».

«هل تظن حقا أنهما قتلا السير جورج لأنه لم يقدر على مساعدتهما، أو ربما لأنه رفض؟».

«تماما يا واطسون. لا شك أنهما أحضرا له بردية المفتاح وطلبا منه أن يحل اللغز، ووعداه بـ... أي ثروة –على سبيل المثال– سيجدانها عندما يتحصّلا على لفافة الموتى». ضحك هولمز بينه وبين نفسه، ثم أردف: «إنها لمِن السذاجة أن يطلبا منه طلبا كهذا بشكلٍ مباشر. وعندما أصرّ السير جورج على رفضه، لم يجدا حلا سوى قتله».

«لأنه علِم سرّهما».

«بالضبط».

شعرت بجسدي يرتجف عندما تذكرت كيف نفّذ المجرمان جرائمهما بدمٍ باردٍ. واسترجعت وجه ملموث الذي رغم شحوبه تبدو فيه القسوة، وعينيه اللتين يلمع فيهما الهوس والشر.

قلت: «إن جرائمهما تلك تبين مدى وحشيتهما».

«إن الشر نفسه يقبع بداخلهما يا واطسون. إنهما يجدان متعة في ارتكاب الجرائم».

«هل تظن أننا سنعثر عليهما في هولدن هول؟».

ضاقت عينا هولمز وهو ينفث دخانا رفيعا كالخيط. ثم قال أخيرا: «ليس بوسعي أن أجزم بما سيحدث، لكنني مقتنع أننا سنجد هناك شيئا سيفيدنا».

***

يبعد قصر هولدن هول عن مدينة نوريتش العتيقة بحوالي عشرين ميلا، ولذا فقد استأجرنا عربتين عند وصولنا للمحطة. وبعدما سرنا لبعض الوقت في طرق المدينة، وصلنا قرية هولدن پارڤا. رأيت من بعيدٍ حانة تحمل اسم «بلاك سميث آرمز». أشرت إلى الحانة وقلت: «إن معدتي تصرخ طالبةً طعام الغداء يا هولمز. لم آكل شيئا منذ الفطور الساعة السادسة صباحا، والذي لم يكن إلا قطعة من الخبز المحمص وكوبا صغيرا من القهوة».

تفاجأت عندما استجاب هولمز لطلبي دون أن يُبدي اعتراضا. ربطنا الحصانيْن في حلقة حديدية كبيرة تبرز من الحائط خارج الحانة، ثم دلفنا إلى الداخل.

بدا المكان بسيطا؛ الأرضية من الحجر، وثمة مقاعد خشبية هنا وهناك. ورغم بساطة المكان، إلا أنه نظيف ومرتب. استقبلنا المالك ذو الشعر الأسود القصير بابتسامة ترحيب. وأعطانا خبزا، وجبنا، وبعض المخلل، وكوزين من البيرة، أخذناها وجلسنا على إحدى الطاولات الخشبية. رأينا عددا لا بأس به من الزبائن، رجال يرتدون ملابس الريف: سراويل ناعمة من القماش، جراميق، سترات جلدية طويلة، وأحزمة واسعة. جلس نفر منهم يتحدثون مع المالك.

بقي هولمز صامتا بينما نتناول وجبتنا، ولكن عينيه ظلتا تراقبان كل من حولنا بعناية بالغة. وعندما اقتسمنا آخر قطعة جبن، أتى المالك ليجمع الأطباق من على طاولتنا.

«كان هذا كل ما طلبه صديقي». قال هولمز للمالك وهو يبتسم لي بخبثٍ، ثم أتبَع: «لقد سمعتك تتحدث عن حادثة إطلاق نار مروعة وقعت في هولدن هول منذ أيام قليلة. هلا أخبرتني عنها؟».

لاحظت ملامح الحانيّ الوردية تفقد لونها. قال: «سمعتَ عنها إذن؟ أليس من المدهش أن الأخبار تذاع سريعا؟».

«جئت لابن اللورد فيلشو في أمرٍ هام، فأخبرني أحد الخدم أنه ذهب لحضور جنازة، ولهذا علمت بأمر الحادثة».

«أجل.. إنه حقا عمل خبيث». صاح أحد الجالسين على طاولة الشراب، شعره أصفر باهت كالقش، ولحيته –التي لها نفس اللون– تكاد تبتلع وجهه كاملا. أكمل قائلا: «قد يكون ما سأقوله لا يصح، لكن السيد توبياس وصديقه غريب الأطوار دائما ما يقعان في المشاكل».

«هل أفهم من ذلك أن سيدك الشاب ليس محبوبا؟».

قهقه الجالسون جميعهم في آنٍ واحد.

«بالضبط يا سيدي». قال الحانيّ وهو يبتسم، ثم استكمل: «وبصرف النظر عن أي شيء آخر، إنه ليس طبيعيا». غمز لهولمز بشكلٍ مريب وهو يقول: «لا أدري إذا كنت قد فهمت مقصدي، لكنه ليس ما تسميه.. رجلا».

أومأ هولمز برأسه معبرا عن فهمه.

«ودائما ما يقيمون حفلات غريبة في القصر، وأشياء أخرى من هذا القبيل». أضاف أحد الجالسين على طاولة الشراب. أومأ الجميع برؤوسهم، بدا أن الموضوع مشوق بالنسبة لكل الموجودين في الحانة.

قال الرجل ذو الشعر الأصفر: «إنه شخص قاسٍ أيضا.. في إحدى المرات، ضرب السائس لأنه لم يضع السرج على حصانه بالشكل الصحيح. أصيب السائس المسكين بإصاباتٍ بالغة حتى كاد يموت، فتدخّل اللورد فيلشو ودفع مبلغا كبيرا لذلك المسكين حتى لا يبلغ الشرطة».

«يبدو أن المدعو توبياس هذا ليس زبونا مرحبا به على الإطلاق. أعتقد أنني محظوظ عندما أُخبِرت أنه ليس في القصر. من الواضح أنه شخص غير متزن». عقّب هولمز.

قال رجل وجهه كوجه الكلب السلوقي، بصوت متحشرج تبيّنت منه أنه أكثر من شرب فيهم جميعا: «عندما تملك المال، قد تقتل المئات ولا تحاسب».

ساد الصمت فجأة. لمعت عينا هولمز وسأل الرجال وهو يبتسم: «هل ترجحون إذن أن ثمة شيئا غامضا يخص الحادثة؟».

نظر الرجال لبعضهم في دهشة بألسنةٍ معقودة، إلى أن قطع الصمت ذلك الرجل ذو وجه الكلب السلوقي قائلا: «دعني أوضح لك شيئا يا سيدي.. لقد علمنا كل هذا مما قاله اللورد توبياس فقط. ولأنه سيئ المزاج دائما

كالشيطان، فلن أستطيع أن ألمح له إذا كان قد أطلق النار على صديقه بسبب جدال دار بينهما، أو لأي سبب آخر».

«اصمت يا ناثان». قال له السكير الملتحي بهدوءٍ ووكزه في ضلوعه.

لم يدع هولمز الأمر يقف عند ذلك الحد، فالمعلومات كانت تتدفق من أفواه الجالسين كالنهر المندفع. تعبيرات وجهه تشي بأنه يعرف أن لديهم المزيد، ولقد أراد أن يعرف كل شيء. فقال بنبرة حانية وكأنه صديق قديم لهم: «ولكن ما زالت هناك شهادة الخادم الذي كان معهم وقت وقوع الحادثة».

ضحك ناثان ثم قال: «يا لها من وجهة نظر صائبة يا سيدي. لكن يؤسفني القول أننا لا نعرف أي شيء عن ألفرِد في الوقت الحالي».

«هل تقصد أنه اختفى فجأة؟».

«إننا نعتقد أنه قد حدث معه مثلما حدث مع طومسون.. أعطوه المال كي يبتعد ويُبقي فمه مغلقا». رد المالك بهدوء وهو عائد إلى طاولة الشراب.

قال ناثان: «لم يلمحه أحد في العزبة منذ وقعت الحادثة».

«وماذا عن بيته؟». سألته.

«إنه يعيش بمفرده في كوخٍ صغير بجانب البحيرة».

قال المالك متوترا: «أيها السادة، ألَم يحن الوقت لتغيير الموضوع؟ لقد تحدثنا كثيرا عما يجري في القصر، وأخشى أن تخيم لعنته على الحانة».

«إنني بالفعل مصاب بلعنة واحدة.. هي زوجتي». قال ناثان بنبرةٍ بائسة. ثم بعد ذلك طغت ابتسامة عريضة على البؤس الذي تملك منه للحظة، وهربت ضحكة عالية من بين شفتيه جعلت الجميع يشاركونه الضحك. انجلى التوتر، والتفتوا عنّا وبدأوا يمزحون معا حول من سيقوم بشراء الشراب لهم.

انحنى هولمز نحوي وهمس في أذني: «مشاركتك معي في هذه القضية لا تقدر بثمن يا واطسون. إن اقتراحك لتناول الغداء كان في منتهى الذكاء!».

***

ودّعَنا الجميع بإيماءات وكلمات لم نتبينها ونحن نغادر الحانة. وعندما ركب كل منا عربته، قال لي هولمز: «ما لا يعلمه أولئك المساكين أن ألفرِد لم يختفِ عن الأنظار لأنه أُعطيَ مالا.. بل إنه الجثة التي ستكون في نعش ملموث اليوم في الجنازة».

انتابتني القشعريرة عندما جالت بذهني حقيقة أن شخصا بلا قلب أو مشاعر، قد فكّر وخطط ونفّذ جريمة شنيعة كهذه.

«لقد استنتجت كل هذه الحقائق قبل أن نأتي إلى هنا، وعلى الرغم من تأكدي الآن، لكن ثمة غرضا أعظم لرحلتنا».

«ألا وهو؟».

«أن أتأكد من صحة إحدى نظرياتي».

لم يكن ثمة فائدة لكي أستفسر عن تلك النظرية، فأنا أعرف صديقي القديم جيدا، وأعلم أنه دائما ما يحب أن يفاجئني -بطريقته المبالغ فيها- بتطور ما في القضية. كان يشرح لي كل شيء فقط في الوقت الذي يراه مناسبا، ولم يستجب يوما لإلحاحي الدائم.

إذا كنت قد تعلمت شيئا طوال سنين معرفتي بشيرلوك هولمز، فلا شك أنه الصبر.

أكملنا رحلتنا إلى قصر هولدن هول. وكلما تقدمنا، أخذت مظاهر العيش تتلاشى من حولنا، وتحيط بنا مساحات خضراء مليئة بحفيف أوراق الأشجار وأنغام الطيور وصيحات الحيوانات. مضينا في عالم الطبيعة المنعزل عن جشع وقسوة الإنسان. شردت بذهني للحظات أفكر في حقيقة أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان*، إلى أن وكز هولمز مرفقي وأشار إلى الأمام. تراءى لي بين الأشجار البعيدة قصر كبير خلفه مسطح ماء شاسع.

«ها هي وجهتنا».

«البحيرة؟».

ابتسم هولمز وقال: «ليس بالضبط، بل وجهتنا كوخ ألفرد. تذكر ما قاله ذلك الثرثار عن مكان الكوخ الذي يقع بالقرب من البحيرة. والآن دعنا نتسلق

ذلك الجدار ونمشي بمحاذاة الأشجار، كي نتخفّى عن الأعين، إلى أن نصل إلى البحيرة».

«ماذا لو رآنا أحدهم وقبض علينا؟ لا بد أن هناك حرّاسا يراقبون القصر باستمرار».

«سأفكر في حلٍ، لا تقلق».

«قد لا نحظى بفرصة للتوضيح».

---

* باللاتينية Homo homini lupus est

بالإنجليزيةMan is a wolf to Man

هي حكمة رومانية شهيرة، ترجمها واستعان بها الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز في إهداء كتابه المعروف باسم «في المواطن».

«إنك دائما تنظر إلى الجانب المظلم يا واطسون. ألا تحمل مسدسك معك؟ جيد، اتبعني».

تركنا العربتيْن خلف أشجار متشابكة الأغصان ثم تسلقنا الجدار القصير ومشينا داخل أراضي القصر. وقتها كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وبدأت ملامح ذلك اليوم الربيعي العذب تتبدل؛ فتناثرت سحب رماديّة في السماء، أخذت تواري –رويدا رويدا– لون السماء الأزرق حتى كادت تخفيه تماما وكأن لم يكن له أثر، واشتد النسيم حتى صار ريحا تهز الأغصان فوق رأسينا هزا.

لم يكن ثمة مسار محدد، ولذا فقد بحثنا بأعيننا حتى وجدنا جهة البحيرة وانطلقنا نمضي بسرعة. وبعدما قطعنا مسافة تقرب من ثلاثمئة ياردة في الغابة ذات الشجيرات الخضراء الكثيفة التي حفتنا من كل جانب، توقف هولمز وأخرج تلسكوبا من جيب معطفه ثم أعطاه لي وأشار إلى حيث أرادني أن أنظر. حرّكت التلسكوب ببطء ونظرت نحو المنطقة الواقعة خلف الأشجار، رأيت مياه البحيرة الرمادية المتقلبة، ثم نظرت نحو الأعشاب الخضراء بالقرب من الشاطئ، وتراءت لي أشجار كثيفة في الأفق.

عند حافة الغابة، خلف البحيرة، لاحظت وجود كوخ صغير، مصنوع من حجر لونه كلون العسل، وبدت الحديقة مكسوة بالعشب والنوافذ ملطخة بالطين.

«إنه كوخ ألفرد». همست.

«إنه هو حتما. انظر كيف تمتد الغابة من خلفه.. يمكننا أن نصل إلى الجزء الخلفي بإكمالنا السير بين الأشجار». قال هولمز وهو يضع تلسكوبه في جيبه، ثم أكمل: «أسرع يا واطسون. ثمة مهمة تنتظرنا». ثم انطلق يعدو على غير هدى بين الشجر. وبينما نحن في طريقنا، سمعنا دويّ رصاصة قادما من خلفنا. انبطحنا على الفور وبقينا في مكانينا نترقب سماع أي صوت. وبعد لحظات، سمعنا دويّ رصاصة أخرى.

«هناك حارس قريب من هنا». همست بحِدة لهولمز.

«وهو يؤدي عمله على أكمل وجه!». ابتسم هولمز ثم أردف: «هاتان الطلقتان أتتا من مسافة بعيدة. فإذا حافظنا على حواسنا منتبهة، لن نجد صعوبة في الهرب منه».

انتظرنا لبعض الوقت في صمت ولم نسمع أي صوت لطلقات نارية، فاستكملنا سيرنا بين الأشجار. وأثناء تحركنا، ظللت مدقق السمع محاولا التقاط أي صوت غير مألوف قد يشير إلى اقتراب الخطر، ولكن بصرف النظر عن صوت الريح التي تهدهد أوراق الشجر، والضوضاء التي تحدثها الحيوانات بين الحين والآخر، فلم أسمع شيئا لافتا.

وفي غضون عشر دقائق، كنا قد وصلنا إلى الجزء الخلفي من الكوخ. بدا المكان ساكنا وخاليا، ولم يكن ثمة دخان يتصاعد من المدخنة المتآكلة، ولم نرَ أو نسمع أي شيء يدل على أن المكان مسكون.

«آمل أننا نقوم بما هو صائب يا هولمز.. ولكن، ماذا لو كان مالك الكوخ هو عامل آخر في العزبة؟».

تجاهل هولمز سؤالي وأشار لي كي أتبعه إلى خارج الغابة لنذهب إلى الكوخ. ورغم شكوكي هذه، تبعته.

كان ثمة سور قصير، وبعض المباني الصغيرة الملحقة بالجزء الخلفي من العقار، وحظيرة من الواضح أنها كانت تضم عددا كبيرا من الدواجن. أمَرني هولمز أن أبقى عند الحائط بينما انحنى هو بجسده، ثم تسلق النافذة وألقى نظرة من حافتها. استدار بعدها نحوي وهز رأسه ثم همس لي قائلا: «ابقَ مكانك مختفيا عن الأنظار بينما سألقي نظرة».

لم أحظَ بفرصة للرد، فقد اختفى رفيقي في لمح البصر داخل الكوخ. هززت كتفيّ مستسلما ثم جثوت على ركبتي فوق العشب الرطب بجانب الحائط، وانتظرت.

مرّ الوقت دون أن أسمع أي صوتٍ قادم من داخل الكوخ يدل على الحركة. بدأ رذاذ المطر يتساقط وشعرت ببعض التوتر لِما سمعته من أصوات؛ حفيف الأشجار من خلفي، صرخات حيوان غير مألوف، وهرير الريح التي تجتاح أركان الكوخ. شعرت أن ذلك الكوخ القديم يحدق في وجهي ببرودٍ، وكأن نوافذه المتسخة وبابه المُهشم يحجبون عني أسراره.

وبعد فترة، تغلب عليّ فضولي وقمت من مكاني عازما على اللحاق بهولمز عند الجزء الأمامي من الكوخ، لكن الباب بدأ يهتز شيئا فشيئا، فجلست مرة أخرى وظللت أراقبه. في البدء، أخذ المقبض يرتعش بسرعة ثم ما لبث أن دار مُحدثا صريرا مزعجا. حبست أنفاسي عندما انفك الباب من إطاره الملتوي وبدأ ينفتح رويدا رويدا. وبشكلٍ تلقائي، مددت يدي في جيب معطفي وتحسست مسدسي، وبدا لي شبح داكن، يكسو الظل وجهه، يقف عند المدخل.

سمعت صوتا ينبعث منه قائلا: «أعتذر عن إبقائك منتظرا.. تفضل بالدخول».

-٨-

سر الكوخ

كان الشبح الداكن الذي خرج من الباب إلى وضح النهار، هو شيرلوك هولمز.

«تعال يا واطسون. ليس هناك داعٍ لبقائك متخفيا».

قادني صديقي إلى داخل الكوخ، ثم دفع الباب ليُعيده إلى إطاره المهترئ. لا شك أن هولمز قد لاحظ ملامح القلق على وجهي، لأنني وجدته يربت على كتفي ليطمئنني وهو يقول: «لا تقلق يا واطسون. ليس هناك أحد غيرنا هنا».

«ليس لرحلتنا هذه فائدة إذن».

ابتسم هولمز وقال: «بالعكس، هذا المكان كنز حقيقي. تعال وألقِ نظرة».

أمسك بذراعي وقادني إلى مطبخٍ ضيق، في منتصفه طاولة خشبية معوجّة عليها قطعة خبز متعفنة، وأطباق قذرة، وبعض الأواني الفخارية. وفوق الموقد، كان ثمة قِدْر كبير لم تزل منه الدهون، بداخله بقايا طعام متحجرة.

«ثمة الكثير من الأطباق المتسخة.. ألا تعتقد أن عاملا وحيدا مثله لن يستخدمها كلها بمفرده؟».

«ربما هو عامل كسول. فمن الواضح أنه لم يقم بأعمال التنظيف منذ فترة».

«لا أعتقد ذلك. فإذا فحصت الأطباق بعناية ستجد أن بها بقايا الوجبة ذاتها».

«إلامَ تلمّح؟».

«عندما فحصت تلك البقايا». قال هولمز وهو يلتقط من أحد الأطباق شيئا أشبه بعظمَة أرنب، ثم استكمل: «تأكدت أن شخصين قد اقتسما هذا الأرنب المطهو. ثمة طبقان، وكوبان، ومن كل أداة من أدوات المائدة زوجان». ثم ألقى بالعظْمَة فأحدثت ضجيجا عند اصطدامها بالطبق.

«شخصان إذن.. ترى من هما؟».

«استخدم عقلك يا واطسون.. فكر في من يحتاج إلى الاختباء هنا».

«أعتقد أنك تقصد ملموث.. لقد وُضع ألفرِد داخل النعش، واستولى ملموث على الكوخ حيث سيختفي عن الأنظار لبعض الوقت».

أومأ هولمز برأسه لبعض الوقت ثم سأل: «وماذا أيضا؟».

«من المستحيل أن يكون هذا توبياس فيلشو، فقد كان في لندن البارحة وسيتجه إلى العزاء اليوم».

«هذا صحيح. فمن إذن الشخص الذي يُمثل القطعة الناقصة في هذه الأحجية؟».

فكرت للحظة، وسرعان ما توصّلت لإجابة.. قلت بصوتٍ عالٍ: «لا تقل أنك تقصد والد الآنسة آندروز، السير أليستير!».

«بالضبط!» صرخ هولمز، وأخذ يفرك يديه في حماس وهو يقول: «بالطبع هو! إن هذا هو المكان المثالي الذي يقدرون على احتجازه فيه، حتى يضغطوا عليه لكي يحل لغز بردية المفتاح، ومن ثم المخطوطة المسروقة. ثمة سريران بالأعلى، وقد تم استخدام الاثنين، وهناك أيضا حبل ربطه أحدهم في مقدمة أحد السريرين، مما يرجّح أن هذا هو السرير الذي بات عليه السير أليستير طوال الليل. كما أني وجدتُ...».

كالعادة سحبني من ذراعي وقادني إلى الردهة. لم نجد في الغرفة أي أثاث عدا أريكة عتيقة وكرسي متآكل موضوع بجانب الموقد. انحنى هولمز بجانب الكرسي والتقط بعض الأوراق المطوية المُلقاة على الأرض.

«ألقِ نظرة على هذه الأوراق». قال هولمز مبتسما وهو يضع الأوراق في يدي بحماسٍ.

ذهبت ناحية النافذة التي لا يحجبها ستار، حيث تنبعث أشعة ضوء رمادية ستساعدني في فحص الأوراق. والحق أنني لم أفهم شيئا مما وجدته مكتوبا، لكنني على الأقل تعرّفت على عدة رموز هيروغليفية. ظللت أحدّق في الرموز دون حركة، وكأنني أنظر في عين الميدوسا فأتحجّر. فهمت لحظتها بوضوحٍ جليٍّ كل ما استنتجه هولمز.

«ليست هذه محض نقوش بلا معنى، بل هي رموز رُتبت بنظامٍ مُحدد.. هذه رموز هيروغليفية. وهذه الأوراق تمثل دليلا قاطعا لا ريبة فيه أن السير أليستير كان هنا، وأنه كان يعمل على بردية سِتاف». قال هولمز وقد بدت على وجهه السعادة. ثم أكمل: «كما أن كل ورقة من هذه تحمل توقيع تحوت المميز في الأسفل».

لاحظت بالفعل وجود رسمة بسيطة للإله ذي رأس أبو منجل، تتطابق مع تلك التي أرَتها لنا الآنسة آندروز.

فجأة، تبدّلت ملامح هولمز، ثم ضرب المقعد بيده في غضب وقال: «لقد كنت بطيئا أكثر من اللازم يا واطسون! أكثر من اللازم! لو جئنا إلى هنا البارحة، لكنا قبضنا على العصفورين في عشهما! لكنهما هربا في النهاية».

«ماذا عن السير أليستير؟ ألا تعتقد أنهم قتلوه؟».

هز هولمز رأسه وقال: «لا يستطيعون التخلص منه قبل أن يضعوا أيديهم على لفافة الموتى، لأنه قد يخدعهم بترجمته.. إنهم حقا أذكياء، وحذرون لدرجة لن تدعهم يجازفون. لا! بل.. بل إنهم سيبقونه معهم إلى أن ينهوا مهمتهم الشنيعة. هذا ما نعلمه الآن. دعنا نرى ما لدينا هنا».

انحنى هولمز مرة أخرى بجسده على المقعد، والتقط من جانب الوسادة وريقة، ثم انضم إليّ أمام النافذة وبدأ يفحصها. من أول نظرة بدا لي أنها إحدى الورقات التي كتبها السير أليستير، لكن عندما دققت النظر، عرفت أن تلك الرموز ليست مصرية.

«دعنا نرى ما لدينا هنا». كرر هولمز ببطء وهدوء، وكأنه يُحدِّث نفسه. ظل يتأمل الورقة لبضع دقائق، وأخذ يُقلبها في اتجاهات مختلفة، حتى أطلق صيحة فرحة وقال:

«بالطبع! بالطبع! لقد حالفنا الحظ حقا.. وربما ساعدنا السير أليستير نفسه!».

«ماذا تعني؟».

«ألقِ نظرة على تلك الرموز الخبيثة الصغيرة يا واطسون».

فعلت كما أمرني صديقي. وجدت على الورقة بعض الرسومات البسيطة.

«ماذا استنتجت مما رأيته يا واطسون؟».

«لا شيء غير أن هذه محض رسوم بسيطة بلا معنى».

«أتفق معك أنها رسوم بسيطة. لكنها ليست بلا معنى، بل إنها تحمل رسالة ما. أخبرني ماذا ترى».

«حسنا.. أرى هنا منزلا صغيرا، إحدى نوافذه مُظللة. وثمة درجات سُلّم، وشيء ما أشبه بالإبريق، ونعش».

«لكن هذا ليس نعشا عاديا».

«نعم.. معك حق. إنه نعش مصري.. ناووس».

مدّ هولمز يده، مُنتظرا مني المزيد. لكن لم يكن لديّ ما أضيفه.

«أرى.. أو بالأحرى.. لا أرى شيئا آخر. من الواضح أنك تعتقد أن ثمة مغزى ما وراء هذه الرسومات».

«أعتقد ذلك. وسنتأكد من هذا قريبا».

«كيف؟».

ضحك هولمز ثم قال: «اتبعني. إذا كان ما استنتجته صحيحا، فهذه الورقة المبهمة قد تركها رهينة ملموث هنا على أمل أن يعثر عليها من سيكتشف هذا المخبأ».

صعد هولمز الدرج سريعا. صعدت خلفه مباشرةً، وعندما وصلنا إلى الطابق العلوي، ألقى هولمز نظرة على الورقة. لم يكن في الطابق سوى غرفتين.

«أترى؟ النافذة المُظللة في الرسمة تقع في الجزء العلوي، على اليسار. إذا فهذه هي الغرفة».

اندفع نحو الغرفة الواقعة على اليسار، ودلف إلى الداخل. وبسرعة هرع إلى النافذة، ثم أطلق صرخة فرح وقال: «الإبريق!». ومن حافة النافذة التقط إبريقا عليه نقش خافت لشجرة صفصاف، يشبه ذلك الإبريق المرسوم على الورقة. قلبه رأسا على عقب، متوقعا أن يقع منه شيء، لكن لم يقع شيء.

رمشت عينه في قلق، وفي تردد أدخل يده في الإبريق. وفجأة، صاح بنبرة المنتصر قائلا: «هناك شيء في الداخل، لكنه ملتصق بالأسفل».

مضى هولمز نحو الموقد، ثم صدم الإبريق –ويده ما زالت في الداخل– بِرَف الموقد الأسود. بدا وكأن الإبريق قد انفجر، فقد تناثرت شذراته الزرقاء بقوة في كل اتجاه.

أطلق هولمز صرخة فرح أخرى، وبدا على وجهه الرضا وهو يلتقط من بين الحطام الذي أحدثه ورقتين، ثم أخذ يفحصهما بعناية.

«يا لها من ثروة يا واطسون!».

«ما هاتان الورقتان؟».

«نسختان كُتبتا بسرعة، ولكنهما ثمينتان للغاية. أظن أن إحداهما نسخة من بردية المفتاح، والأخرى نسخة من بردية حنت-تاوي».

أعطاني إياهما. ورغم أنني تعرّفت على الرموز المصرية، بمُختلف أشكالها، إلا أنها لم تزل مبهمة بالنسبة إليّ.

«ألا ترى؟». صاح هولمز بصوتٍ عالٍ من فرط حماسه، ثم أكمل: «لقد ترك السير أليستير هاتين الورقتين حتى يسهل من عملية تعقبه.. هو وخاطفيه. إنه ترك نفس الكم من المعلومات التي بحوزة خاطفيه».

«ولكن كيف له أن يعلم أن هناك من سيقوم بالبحث عنه هنا؟».

ابتسم هولمز ابتسامته المعتادة عندما يشعر أنه يفهم الأمور أكثر مني.

قال: «دعنا نقول أنه رجل يغرق يحاول التعلّق في قشة. ولكن ضع في اعتبارك أيضا أنه متأكد من أن ابنته قوية العزيمة، ولن تظل واقفة في مكانها مكتوفة الأيدي، بينما هو مسجون في مكان ما. كان يعلم أنها ستطلق بعض الكلاب لملاحقته».

ثم لوّح بالورقتين في الهواء وهو يقول: «وتحسبا...».

«لماذا ترك المفتاح ولم يترك الحل إذن؟».

هز هولمز كتفيه ثم قال: «ربما لأنه لم يخبر ملموث وفيلشو بكل التفاصيل. فحياته ستظل آمنة، طالما لم يزل مفيدا لهما. وإنها لمن الحماقة أن يترك الحل كاملا في مكانٍ قد يعثران فيه عليه صدفة. كما أنه ربما لم يتوصّل إلى حل للغز المفتاح أو البردية المسروقة».

«هذا استنتاج منطقي، لكنه لن يساعدنا كثيرا، لأننا سنضطر إلى حل الألغاز بأنفسنا».

تفاجأت عندما رأيت ثغر هولمز يتسع بابتسامة عريضة.

قال: «بالنسبة لمؤلف دراسة تافهة حول موضوع الكتابات السرية، التي قمت بتحليل مائة وستين شفرة منها بشكل منفصل، فهذا اللغز القديم لن يشكل أي صعوبة».

نظرتي أوحت له أنني لم أصدقه، فجملته الأخيرة تلك كانت تحمل مقدارا لا بأس به من الغرور، مما دفعه لأن ينفجر ضاحكا، وهذا أمر من النادر أن يحدث.

«تحلّ ببعض الثقة». صاح أخيرا وهو يكتم قهقهته.

«أظن أننا نريد ما هو أكثر من الثقة». أخبرته.

***

مر بعض الوقت، قام هولمز خلاله بالبحث داخل المنزل عن أي طرف خيط آخر، ليتأكد أنه لم يُخلف وراءه شيئا ذا أهمية، ثم عدنا بعد ذلك إلى عربَتينا. كنا في أكثر بقعة كثيفة في الغابة، ولذا فقد واجهنا صعوبة في السير واضطررنا لبذل جهد كبير كي نمر بين أغصان الأشجار.

فجأة، ودون سابق إنذار، دفعني هولمز إلى الأرض، فوقعت على عشب طويل مبلل، ثم ألقى بنفسه بجانبي. وقبل أن أحظى بفرصة كي أتخذ رد فعل، أغلق فمي بأصابعه بقوة حتى كدت أختنق، ليمنع أي صوت قد أُحدثه.

«هناك حارس!». همس في أذني وهو يُرخي أصابعه من على فمي.

نظرت حيث ينظر هولمز، فرأيت رجلا غليظ البنية يرتدي ملابس القرية الصوفية، يقف على بُعد خمسين ياردة منا، ويحمل بندقية لها فوهتان.

«لا أعتقد أنه رآنا، لكن يبدو أنه يبحث عن شيء ما، أو ربما شخص ما. علينا البقاء منبطحين إذا ما اقترب نحونا، فعندها سنضطر إلى الجري هربا». قال هولمز.

وعلى الرغم من أننا قد تسللنا خفية إلى منزل ألفرِد، لكن بدا أن أحدهم قد راقب دخولنا، وها هو الحارس يحاول تقفي أثرنا. وقف الحارس في مكانه متصلبا لبعض الوقت، كأنه شجرة من الأشجار التي تحف المكان. كان واقفا يشم النسيم العليل، ثم التفت وبدأ يمشي في اتجاهنا، وعندما اقترب أكثر، لاحظت أنه رجل قوي البنية، أحمر الخدين، له عينان صغيرتان تبدو فيهما الغلظة يعلو كلا منهما حاجب أشقر أشعث. رأيته يرفع سلاحه ويضمه إلى كتفه، مصوبا إياه نحو شجرة قريبة، ثم دار به في حركة نصف دائرية وكأنه يبحث عن هدف ليصيبه. أخذ يقترب أكثر، داعسا بحذائه الثقيل أغصان الأشجار الجافة التي تملأ الأرض. تسارعت ضربات قلبي؛ شعرت أنه في أي لحظة سيكتشف مكاننا، فيُفجِّر رأسينا، وتذهب أرواحنا إلى السماء في التو واللحظة. وبالتأكيد لم يبد ذلك الرجل شخصا قد يسألنا عن سبب تواجدنا داخل العزبة؛ ففي نظره نحن مجرد دخيليْن، ولذا فإن له كامل الصلاحيات في التصرف بالطريقة التي يراها مناسبة. دفعني حدسي لأن أتحسس مسدسي، رغم أنني قد ذكَّرت نفسي مرارا بألا ألجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى.

مرة أخرى، تورّطنا أنا وهولمز في كسر القانون، وصرنا نحن الآن مجرميْن.

بقيتُ متشبثا بالعشب الطويل من تحتي، وبقيَت عيناي تراقبان تحركات الحارس، إلى أن سمعت صيحة غريبة لحيوان ما دوت في الهواء.. صيحة عالية النبرة، قادمة من أقصى اليسار، طغت على صوت حفيف أوراق الأشجار الكثيف، وجعلت الحارس يثبت في مكانه كالصنم القديم. بقيَ كذلك للحظات، ثم دوت الصيحة مرة أخرى، وعندها التفت الحارس وانطلق يعدو في اتجاه الصوت.

«إنهما حارسان». قال هولمز بعدما اختفى الحارس الذي كاد يكشفنا. ثم أكمل: «كانت هذه إشارة من رفيقه.. إنها فرصتنا للهرب، فإذا انتظرنا لدقيقة أخرى، فربما سننال شرف مقابلة الحارس وسلاحه!».

«نعم.. من الأفضل أن نبتعد من هنا سريعا». قلت وأنا أنهض، وأزيل العشب الذي التصق بملابسي.

ابتسم هولِمز وقال: «أتِفق تماما مع هذا».

لم ينبس أحدنا بكلمة أخرى، وواصلنا طريقنا إلى حافة العزبة. ازددنا حذرا هذه المرة، بعدما تعرضنا لخطر وشيك. وعلى الرغم من هذا، فلم نمضِ لأكثر من 400 ياردة حتى سمعنا أحدهم يصيح: «توقفا أيها الوغدان، وإلاّ سأطلق النار!».

التفتت فورا ونظرت بين الأشجار، فرأيت شخصا يرتدي ملابس الريف، ويحمل أيضا بندقية ذات فوّهتين. كان طويل القامة وأقل وزنا من الحارس الآخر، لكنه لم يقل عنه في الغلظة.

«تابع السيْر». همس لي هولمز.

وقبل أن أوجه أي كلمة لهولمز، علا صوت انفجار، ثم انكسر غصن صغير كان فوق رأسي مباشرة وسقط على الأرض.

«يا إلهي! إنه يريد قتلي!». صرخت وأنا أنحني للأمام.

«نحن مجرد حثالة بالنسبة له». همس هولمز بحدة، ثم أتبع: «وإذا أراد أن يقتلنا لفعل.. لكنه صوّب من مسافة بعيدة فقط ليُهددنا. إنه يريد إخافتنا.. تابع سيْرك وابق منحنيا».

فعلت كما أمرني.

أطلق الرجل النار مجددا، ولكن هذه المرة، شعرت بقبعتي تطير من فوق رأسي.

«لم يكن هذا مجرد تهديد!». قلت وأنا أمضي منحنيا إلى الأمام. التقطت قبعتي، فوجدت جزءا من حافتها مقطوعا، كما وجدت جزءا كبيرا متفحما من الشريطة التي كانت تزينها.

واجهنا صعوبات كثيرة ونحن نشق طريقنا بين الأشجار الكثيفة المترابطة. تعثّرنا على أغصان، وانزلقنا على عشب، حتى وصلنا إلى منطقة خالية من كل هذا، واستطعناً أن نزيد من سرعتنا.

رأيت الطريق في الأفق. لم يتبق لنا سوى القليل حتى نصل إلى مسار يؤدي إلى حافة العزبة. واصلنا الجري بأقصى سرعة لدينا، والحارس يطاردنا كالكلب الشرس. نظرت أمامي فرأيت شيئا صدمني؛ كان الحارس ذو الوجه

الأحمر واقفا يسد الطريق. بدا أنه قد سبقنا جميعا وسلك طريقا آخر حتى وصل إلى هنا. وعندما رآنا، تبدّل عبوس وجهه إلى ابتسامة خبيثة.

«توقفا أيها السيدان». صاح بنبرة ساخرة، موجها بندقيته نحو هولمز.

وبدون تفكير، قذفت بقبعتي في وجهه بقوة. اصطدمت بأنفه، فتراجع مذهولا، فلاحقه هولمز بسرعة وذكاء وأذاقه لكمة قوية. وقع الحارس على ظهره واصطدم رأسه بجذع شجرة بلوط. أغلقَت عيناه، وانفتح فمه، وغاب عن الوعي.

أمسك هولمز ببندقية الحارس والتفت ليواجه الحارس الآخر الذي بدأ يُهدئ من سرعته عند رؤيته للسلاح. توقف تماما مكانه عندما صوّب هولمز بندقيته نحوه، ثم أطلق هولمز النار فوق رأسه مباشرة. أحدث ذلك دويّا أقوى من الرعد، وتساقطت بعض أوراق الشجر فوق رأس الحارس.

ألقى الرجل بنفسه على الأرض في ذعر شديد، ثم قفز فجأة وفر هاربا في الطريق الذي جاء منه. أطلق هولمز النار مرة أخيرة في الهواء بينما يختفي الحارس عن الأنظار.

تأوّه الحارس ذو الوجه الأحمر وهو يستعيد وعيه ببطء.

«هيا يا واطسون لنغادر». صاح هولمز وهو يلقي بالسلاح أرضا، ثم انطلق يعدو نحو السور. بقلبٍ ينبض بقوة، أمسكت بما تبقى من قبعتي، وانطلقت وراءه.

-٩-

المزيد من التعقيدات

في غضون ساعتين من مغامراتنا في عزبة «فيلشو»، وصلت أنا وهولمز إلى محطة القطار، واختفينا عن الأنظار في عربة الدرجة الأولى المتجهة إلى لندن.

جلس رفيقي مستندا إلى النافذة، مدقق النظر في الأوراق التي تحصّل عليها من المنزل، ينفث دخان غليونه الكثيف وكأنه قد نسيَ مغامرة الغابة تماما. ظلّ يخط بقلمه على مُفكرته، يكتب بعض الكلمات أو يرسم أشكالا، ويحدث نفسه بصوتٍ خفيضٍ بين الحين والآخر. خلال هذا الوقت، لم يتحدث هولمز معي نهائيا، ولذا فقد تراجعت في مقعدي، مستسلما للصمت الذي فرض نفسه على جلستنا، وأغلقت عينيّ. ومثلما استسلمت للصمت، استسلمت للنوم.

عندما استيقظت، وجدت الليل قد ساد. وكان ثمة مصباحا غاز يزوّدان العربة بضوءٍ كهرماني قوي. بدا أن هولمز لم يتحرّك من مكانه بجانب النافذة، ولكنه هذه المرة كان يُشغل عينيه بالنظر إلى ظلام الليل الذي يحيط بكل شيء خارج القطار. ملامحه الحادة التي تشبه ملامح النسور كانت تنظر إليه من زجاج النافذة، والأوراق على فخذيه مُهملة كأن مهمتها قد انتهت.

نظرت إلى ساعة يدي فوجدت أن أمامنا ما يقرب من أربعين دقيقة كي نصل إلى لندن.

وفي محاولة مني لكسر الصمت، بادرت هولمز بالسؤال: «هل فهمت شيئا من المفتاح؟».

نظر إليّ وكأنه قد أدرك للتو أنني أجلس معه في العربة.. من الواضح أنه كان غارقا في غياهب أفكاره.

«أعتقد ذلك.. لكن ثمّة بعض النقاط التي لم تزل غير واضحة. آمل أن أتثبّت من معناها عندما أقوم ببعض الاستعلامات، وعندما أحصل على خريطة مناسبة لمصر. أما فيما يتعلّق بسِتاف، فليس ثمّة شيء مفهوم».

«أتعني أنك استطعت فك الشفرة؟».

«لا تتفاجأ من هذا».

«بل إنني تفاجأت حقا.. إذا كان أبرز علماء المصريات قد فشلوا، على مدار السنين، في ترجمة الوثيقة، ونجحت أنت في غضون ساعات فقط أن تترجمها، فهذا أمر –بكل تأكيد– يدعو للدهشة. إنه إنجاز في غاية الأهمية!».

أصدر هولمز نخرةً لم أتوقعها، ثم قال: «هذا ما يحدث عندما تتملّك المشاعر من الكاتب يا واطسون.. لقد قام العلماء بالفعل بمحاولاتٍ لفك شفرة سِتاف، لكنهم اعتمدوا على كونهم علماء آثار، على عكس ما فعلته. لقد تعاملت مع البردية كما قد يتعامل معها متخصص في فك الشفرات، وبمنهجية علمية محددة. لا يهم إذا كان الكاتب أحد المصريين القدماء، أو أحد سكان القمر، فالشفرات لها أنماط معينة، وأهم شيء في عملية حلها أن تعامل كل شفرة على حدة، بغض النظر عن جنسية من وضع الشفرة أو ثقافته».

«إذن فهل تعلم الآن أين توجد لفافة الموتى؟».

ابتسم هولمز ابتسامة خبيثة، ثم قال: «كما أخبرتك، عليّ أولا أن أتحصّل على خريطة لمصر القديمة، وأن أتأكد من صحة بعض المعلومات التي استنبطتها».

بعد هذا الرد الحاسم، أغلق هولمز عينيه وسلم نفسه لسلطان النوم.

***

كانت ثمة مفاجأة تنتظرنا في شارع بيكر.

عندما دلفنا إلى المدخل، كدت أسقط عندما تعثرت قدماي بحقيبة ضخمة موضوعة على الأرض. أحدثت ضجيجا وأنا أعتدل، مما أزعج السيدة هدسون فخرجت من غرفتها إلينا.

«أخيرا أتيتما أيها السيدان». قالت وقد بدا على ملامحها القلق.

«ما الأمر، سيدة هدسون؟». سألها هولمز بهدوءٍ تام وهو ينظر باهتمام إلى الحقيبة.

«تلك الشابة التي كانت هنا البارحة.. الآنسة آندروز».

«ماذا عنها؟».

«إنها هنا الآن.. في غرفتك.. مصممة على رؤيتك».

«أظن أن تلك هي حقيبتها، أليس كذلك؟».

«بالطبع، سيد هولمز. أظن أنها عاقدة العزم على البقاء هنا في المنزل.. أنا لا أعلم ماذا يجري، سيد هولمز، لكن ببساطة ليس لديّ غرفة إضافية لأي مستأجر آخر».

قاطعتهما: «هل تريد الآنسة آندروز البقاء هنا؟! ترى بماذا تفكر يا هولمز؟».

حاول هولمز إخفاء الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه لكنه فشل. قال: «أرجوكما، لا تقلقا.. أنا متأكد أن حل المشكلة بسيط جدا. ولكن، هل تستطيعين، سيدة هدسون، أن ترتبي سريرا لتلك الشابة فقط لهذه الليلة؟». نظر إلى ساعة الحائط المعلقة في الردهة ثم أكمل: «لقد مرّ وقت طويل على انتصاف الليل، وستكون من الوقاحة أن نخرجها إلى الشارع في هذه الساعة المتأخرة، ألا توافقني الرأي يا واطسون؟».

لم أستطع الرد.. كنت في حالة من الذهول.

«جيد». قال هولمز، متخذا من صمتي وصمت السيدة هدسون كموافقة على اقتراحه.

تنهّدت صاحبة المنزل طويلا، ثم قالت: «حسنا سيد هولمز. ليلة واحدة.. ليلة واحدة فقط».

«بالطبع. والآن يا واطسون، لنرَ ماذا عسى تلك الشابة العنيدة أن تقول؟».

صعد هولمز الدرج متجها إلى غرفة الجلوس.

اتضح أن الآنسة كاتريونا لم يكن لديها ما تقوله، لأنها كانت نائمة. دخلت الغرفة خلف هولمز مباشرة، وألقيت نظرة على الشابة النائمة. كانت ترتدي نفس الفستان الذي أتت به في اليوم السابق، وتجلس على كرسيي بجانب الموقد، رأسها متدلٍ كالقلادة على صدرها. كانت حقا شابة مدهشة، حادة الملامح، ورغم أنها غير فاتنة الجمال، لكن ثمّة شيئا ما جذابا للغاية في

عينيها، وفمها، وسلوكها الحاد. كان غريبا بالنسبة لي أنها لم يكن لديها صديق يشاركها همومها. من الواضح أنها كرّست كامل وقتها لأبيها.

«واطسون، إن لم تمانع، أحضر لزائرتنا كأس براندي.. وأحضر واحدة لي أيضا». قال هولمز، ثم خلع معطفه وزاد من ضوء المصباح بينما أحضر كؤوس البراندي. صوت حركاتنا أيقظها.. ظلت تهتز وتتقلب وكأنها ما زالت تحلم، ثم بعد ذلك أفاقت وقامت لتقف في مواجهة صديقي، تحدق في عينيه بثبات.

«أخيرا عدت، سيد هولمز.. أخبرني ما لديك من أخبار. أرجوك.. أخبرني».

«هدِّئي من روعِكِ، آنسة آندروز. خذي كأس البراندي من واطسون واشربيها؛ سيهدئ أعصابكِ».

عيناها البنيتان الحانيتان التفتتا نحوي. وبيدٍ ترتعش قليلا تناولت الكأس مني وشكرتني بلطفٍ.

جلس هولمز أمامها، ثم قال: «هذا أفضل.. والآن، قبل أن أخبرك بما لديّ، هل تسمحين لي أن أسألك عن سبب مجيئك إلى هنا، ولماذا أخفتِ صاحبة المنزل بإحضار أمتعتكِ إلى هنا؟».

أخذت الآنسة آندروز رشفة من كأسها قبل أن تجيب، وظل نظرها معلقا بهولمز. لم تعد ملامحها لينة من أثر النوم، بل عادت لحدَّتها ونظراتها الثاقبة.

قالت: «لقد أمعنت التفكير فيما قلته لي البارحة، واسترجعت كل الأحداث التي أدّت إلى اختفاء أبي. وأنا الآن مقتنعة تماما أن افتراضك صحيح.. إن أبي قد اختطِف لما عنده من معلومات تخص اللفافة. ولذا، فمن المنطقي أن نسافر إلى مصر الآن كي نكمل المسار. هذا هو سبب وجودي، وأنا جاهزة للسفر».

بقيت تعبيرات وجه هولمز جامدة، ثابتة، ولم ينطق حرفا واحدا.. ولكنني لم أستطع ألا أتدخل في هذه اللحظة. فصحت قائلا: «هل تتصوّرين حقا أننا سنسمح لكِ أن ترافقيننا في رحلة كهذه؟! إننا لا نعلم حجم المخاطر التي...».

لم أكمل.. فقد تبدّلت ملامح الآنسة آندروز، واتسعت حدقتا عينيها من فرط الانفعال، وصاحت:

«تسمحان لي؟! تسمحان؟! إننا لا نعيش في القرون الوسطى، دكتور واطسون! وليس من حقك، أنت أو أي رجل، قول ما يجب وما لا يجب أن أفعله. أنا مواطنة مستقلة أعيش في بلدٍ ديموقراطي، وسأظل أفعل ما شئتُ ما دمت لا أخالف القانون أو تعاليم المسيحية أو الأخلاق.. بل ربما عليّ (أنا) أن أفكر إذا كنت (سأسمح) لكما أن ترافقاني إلى مصر. تذكّر أنني أعلم الكثير عن مصر، وتضاريسها، وعاداتها وتقاليدها. كنت أعتقد أنك تملك من العقلانية ما يكفي لكي تدرك أن وجودي معكما في الرحلة لا يُقدّر بثمن».

تفاجأت من رد فعلها العنيف..

قلت: «أنا قصدت فقط...».

«إنك مثل كل الرجال، دكتور واطسون، تتحدث قبل أن تفكّر».

حاول هولمز أن يكتم ضحكته. قال أخيرا: «اهدئي، آنسة آندروز. أظن أننا نتفهّم وجهة نظرك. وبالطبع لا نستطيع إنكار عزمك وجدّيتك. لكن أرجوكِ أخبريني، لماذا أنتِ واثقة من ضرورة ذهابنا إلى مصر؟».

«إن لم نكن سنذهب إلى مصر، فإلى أين سنذهب إذن؟ إن قبر سِتاف يقع هناك، وخاطفو أبي يسعون للحصول على لفافة الموتى، أليس هذا صحيحا؟».

أومأ هولمز برأسه موافقا.

«إذن فإنهم سيذهبون إلى مصر إن عاجلا أم آجلا. كنت قد قلت لي أنك تعتقد أنهم سيُبقون أبي معهم إلى أن يحصلوا على بردية سِتاف السحرية.. ألا زلت تعتقد ذلك؟».

صمتت للحظة، وبدأت النار في عينيها تخمد.

أجاب هولمز بنعم.

«إذن ليس ثمّة داعٍ للبحث عن إبرة في كومة قش بإنجلترا، بينما تعلم أن حوض النيل هو وجهتنا الأخيرة».

«ما تقولينه معقول للغاية، آنسة آندروز. لكن على الرغم من أني لم أستطع إيجاد الإبرة في كومة القش التي أشرتِ إليها، إلا أنني تحصّلت على معلومات ستساعدنا كثيرا على تحديد مسار التحقيق من الآن فصاعدا».

ابتهج وجهها، وقالت: «أرجوك أخبرني بكل ما تعرفه. إذا كنت حقا قد توصّلت لأي معلومة عن أبي فأخبرني إياها».

بدا على هولمز التأثر، فقصّ عليها –بلباقته المعهودة– القليل من الأحداث التي وقعت أثناء رحلتنا الريفية إلى نورفولك. احمرّ خدّاها من فرط الحماس. وكلما ورد ذكر أبيها، تنحني بجسدها إلى الأمام وهي جالسة على كرسيها، تماما كالطفلة الصغيرة. إنها شابة متقلبة المزاج والعواطف، ومثلما تغير الحرباء لونها، تستطيع الآنسة آندروز أن تغير حالتها المزاجية بما تمليه عليها مشاعرها.

تنهّدَت عندما انتهى هولمز، واستراحت في مقعدها وهي تقول: «على الأقل نحن متأكدون الآن أنه ما زال على قيد الحياة».

«نعم».

«وهذا يثبت أنك كنت محقا بشأن لفافة سِتاف».

«أعلم أنني قد أبدو لكِ مجرد رجل عاديّ يا آنسة آندروز، ولكنني محقق استشاري، منهجي هو الاستدلال الاستنتاجي، ولذا فتأكدي أنني لا أخمِّن أبدا».

«أعتذر لك. والآن، هل تخطط للذهاب إلى مصر؟».

صمت هولمز طويلا، وظل يحدق في لهيب نار الموقد المتوهج. تقلص جبينه كما لو كان عالقا في نشوة، وفجأة عاد من شروده الذي دام فترة غير قصيرة، وقال للآنسة آندروز بحماس: «بالطبع، فكما خمّنتِ، مصر هي وجهتنا. سنقوم بالترتيبات اللازمة للسفر غدا؛ فبوصولنا هناك سريعا، سنستطيع حل القضية إلى الأبد، وسنرجع لكِ أباكِ».

«سيد هولمز، أنا مصرّة على مرافقتكما!».

«بلا أدنى شك ستأتين معنا. فكما ذكرتِ لصديقي العزيز، إن معرفتكِ العميقة عن مصر ستساعدنا كثيرا خلال رحلة بحثنا».

تنهّدت الآنسة كاتريونا آندروز وقالت: «أشعر بالراحة الآن».

ابتسم هولمز بلطفٍ. ولم ينظر إليّ.

«أود أيضا أن أطلع على الأوراق التي عثرت عليها في ذلك المنزل الريفي. قد أساعدك في حل الشفرات».

«عندما يحين الوقت المناسب لذلك.. والآن سأتصل بصاحبة المنزل، السيدة هدسون، كي تعد لكِ ما يلزمك لقضاء الليلة بارتياح. في هذه الأثناء، سألقي نظرة على بعض الخرائط وأدخّن، أما أنت يا واطسون، فأنصحك بأن تنام جيدا، وأريدك غدا في التاسعة صباحا أن تذهب إلى وكالة كوكز للسفر لتحصل على تذاكر السفر إلى مصر».

-١٠٠-

المُخادِعون يُخدَعون

تملك النوم مني قبل أن يلمس رأسي الوسادة. خلدت لنومٍ متواصلٍ عميقٍ وبلا أحلام، لكن هذا لم يمنع بعض الأصوات الحزينة العذبة من اختراقِ حاجزِ لا وعيي. ورغم أن الأصوات كانت خافتة، إلا أنني شعرت وكأنها مُصرة على إيقاظي. وبالفعل، أفاق عقلي ونشطت حواسي بهدوءٍ وبطء. بقيت مستلقيا لبضع لحظاتٍ إضافية، في ظلام الغرفة الدامس، النعاس يخدّرني، لكن لم تتلاش الأصوات. لحظات أخرى مرّت حتى فرض الواقع نفسه على عقلي المُتعَب، وبدأت أتعرّف على ما أسمع. كانت موسيقى كمان حزينة.

بعدما استيقظت تماما، أدركت أن الأمر بسيط؛ كان هولمز ساهرا يعزف على كمانه أنغاما انبعثت من غرفة الجلوس كبكاء طفلٍ حزين. يا له من أمرٍ غريب! في ليالٍ أخرى، كنت سأنقلب على جانبي وأسلم جسدي المتعب للنوم، لكن هذه الليلة بدت مختلفة.. فقد دفعني شيء ما لارتداء ثوب النوم والنزول إلى غرفة الجلوس بالأسفل.

دخلت الغرفة بهدوءٍ، الإضاءة خافتة، وظل هولمز يحتضن ستار النافذة. جلس موليا ظهره إليّ، مسندا كمان الستراديفاريوس العتيق إلى كتفه وذقنه، يحرّك القوس على الأوتار في حركاتٍ احترافية بطيئة وسلسة.

وقفَت الموسيقى عندما أغلقت الباب خلفي. تجمّد هولمز للحظة، ثم قال: «أرجو ألا تكون أنغامي قد أبقتك مستيقظا طوال الليل».

«لا أبدا».

استدار ليواجهني وابتسم ابتسامة واسعة ثم قال: «جيد. دعني أخبرك أن عزف مقطوعة قصيرة ليس فقط مفيدا للروح، بل إنه بمثابة منشط للذهن، كما أنه يساعد المرء على تقبل الوقائع والحقائق والاحتمالات».

أظلم وجهه الذي كان مشرقا فجأة، وانكمش جبينه، وللحظة شعرت وكأنه لم يعد يراني أو يحدّثني.. كأنني لم أكن في الغرفة معه من الأساس وأنه يحدث نفسه. ثم ظهرت الشمس من خلف غيمة رمادية، أشرقت وأشرق وجه هولمز مجددا. وضع الكمان على الطاولة ودعاني للجلوس على مقعدي القديم بجانب الموقد.

«كل شيء في هذه القضية ليس كما يبدو يا واطسون». قال وهو يجلس أمامي وينفخ في ما تبقى من قطع الحطب المشتعلة حتى تتوهّج ثانيةً للحظة، وتتوهّج معها ملامحه الحادة. ثم أكمل حديثه قائلا: «أترى كيف أصبح هذا الحطب رمادا؟ هكذا الدنيا في تقلب دائم.. نحن محاطون بالخداع والمخادعين من كل جانبٍ يا واطسون. من سِتاف إلى...».

«أريد أن أسمع ما لديك».

«لمذكّراتك بالطبع».

«بل لكي أشاركك همومك».

«أنت رجل صالح يا واطسون. وأحيانا أقلل من قدراتك».

«بالطبع تفعل».

قهقه هولمز وتمتم بهدوء: «رفقتك تعني لي الكثير يا واطسون».

سكت برهة، ثبت العالم خلالها كصنم في متحف الشمع. فرك هولمز يده بعد ذلك في حماس وسعادة، وتراجع للخلف وأخذ يقص على مسامعي الحقيقة المذهلة للفافة الموتى وأولئك الذين يسعون لاكتشافها.

***

عندما عدت لغرفتي، شعرت برأسي يدور وكأن ثمّة عاصفة بداخله.

ما حكاه لي هولمز رسم صورة في خيالي.. وكأنني كنت أقف أمام نافذة، أحاول رؤية ما بالخارج على الرغم من وجود ستائر سميكة، ثم ظهر هولمز فجأة، وإذ به يزيح الستائر ويكشف عن الحقيقة لأرى كل شيء بوضوح. وبالفعل، بعدما كُشفت الستائر، رأيت مشهدا مختلفا تماما. اتضح لي أن من رأيتهم بالخارج هم أشخاص مختلفون. واكتشاف كهذا أبقاني مستيقظا ما بقي من الليل.

في صباح اليوم التالي، جلست لأتناول الفطور مع الآنسة آندروز. وهولمز لم يكن موجودا.

«كان مستيقظا ورأيته يغادر مع طلوع الشمس». قالت السيدة هدسون مُجيبة على سؤال الآنسة آندروز عن غياب صديقي. ثم أكملت: «هذه عادته

عندما يكون منشغلا بقضية ما، أليس كذلك يا دكتور واطسون؟».

أومأت برأسي وأنا أتناول قطعة خبز محمص.

«لقد أخبرني أنه سيعود وقت الظهيرة.. والآن، هل تريدين أي شيء آخر يا عزيزتي؟ هل أحضر لكِ المزيد من الخبز والبيض؟».

هزّت كاتريونا رأسها.

عندما عادت السيدة هدسون إلى غرفتها، قامت الآنسة آندروز من مكانها. ثم ما لبثت أن تنهّدت في إحباط، وقالت: «إلى أين ذهب؟ ولماذا لم يخبرنا أن لديه عملا يقوم به؟».

لم أستطع أن أمتنع عن الضحك لسذاجتها.

«لأن هذه هي طريقة عمله.. إنه لا يثق في أحد إطلاقا، ولا يُعطي لأحد أي معلومة غير التي يراها مناسبة. لقد عملت معه لسنين طويلة، ورغم ذلك فإنه يحجب عني بعض المعلومات، وكأنه يضعني في غرفة مظلمة، إلى أن تحين اللحظة المناسبة لإضاءة تلك الغرفة».

لم يمحُ تفسيري ملامح الاستياء على وجهها. تنهّدت مرة أخرى، ثم ذهبت إلى النافذة ووقفت تنظر إلى الشارع.

نظرت في ساعة يدي ثم قلت لها: «إنها الساعة التاسعة الآن. لقد حان الوقت لكي أذهب إلى وكالة السفر كي أحجز التذاكر. ستكونين بأمان هنا إلى حين عودتي. وإذا أردتِ شيئا، تحدّثي مع السيدة هدسون».

غادرَت الشابة النافذة، وانحنت برأسها حتى لامست جبهتها لوح الزجاج البارد، ثم قالت بسخرية لاذعة: «سأكون طفلة مهذبة يا دكتور واطسون وسأنتظرك بفارغ الصبر».

***

لم أشعر يوما بالارتياح عندما أخدع امرأة، مهما تطلب الأمر ذلك، وهذه المرة لم تكن استثناءً رغم تأكيد هولمز على ضرورة خداع الآنسة آندروز.

كنت مدركا حينما تسللت للخارج كمجرمٍ أنها كانت تراقبني. أوقفت عربة أجرة، وبأداء ممثل مسرحي، أخبرت الحوذي بصوتٍ عالٍ أنني أود الذهاب

لوكالة «كوكز» في شارع ستراند. وبينما بدأنا نتحرّك، رأيت سكويلز، وهو أحد فتيان شارع بيكر الذين يكلّفهم هولمز بأداء بعض المهام، يتسكّع في الجانب الآخر من الشارع. لوّح لي بيده مبتسما.

عندما وصلنا إلى شارع أكسفورد، ناديت السائق وأعطيته تعليمات مختلفة. عبس وجهه وقال: «اليوم إجازة، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي في خجل.

وفي غضون نصف ساعة، كنت قد وصلت إلى مدخل المتحف البريطاني كما اتفقنا. بدا وجهه منتعشا رغم أنه لم ينم طوال الليل، وعيناه تلمعان من فرط الحماس. أخبرته بالحديث الذي دار بيني وبين الآنسة آندروز أثناء تناولنا الفطور. اتسع ثغره بابتسامة وهو يقول: «إنها حقا لمتعة أن أكون متحكما في العصا التي تعكر صفو مياههم». ثم اتجه إلى باب المتحف.

تفاجأ السير تشارلز بارجيتر برؤيتنا بعد وقت قصير من لقائنا الأخير.

«أعتذر حقا عن إزعاجك ثانيةً، لكنني أريد منك بعض المعلومات قبل أن أستكمل التحقيق في قضية سرقة اللفافة».

أومأ عالم المصريات برأسه، ومد يديه مُرحبا وهو يقول: «يُسعدني أن أساعدكما يا صديقاي العزيزان.. سأخبركما بكل ما تريدان حتى تستطيعا أن تعيدا تلك القطعة الأثرية الثمينة».

«عندما نقلت محتويات المقبرة التي اكتشفها جورج فافيرشام وأليستير آندروز إلى هنا، هل وجدتم المجموعة كاملة؟».

«وجدنا معظمها».

«لكنكم لم تجدوها كاملة؟». قال هولمز بنبرة حادة تنم عن اهتمامه البالغ، مما أقلق السير تشارلز الذي انكمش جبينه.

رد بعناية بالغة: «ظلت بعض المحتويات، التي لم نعتبرها مُهمة، في مصر. وقد طلب فافيرشام منا أن يحتفظ ببعض القطع، فوافقنا بشرط السماح للمتحف أن يعرضها في أي وقت».

«وما هذه القطع؟».

«لا أتذكر التفاصيل، لكن لدي قائمة تضم كل شيء عن القطع. ومع هذا فإنني متأكد أنها ليست ذات قيمة إذا قارنّاها بالمومياء والمجوهرات».

«هل كان من ضمنها إناء كانوبي؟»*.

اتسعت عينا السير تشارلز المختبئتان خلف نظارته، وقال: «نعم.. أعتقد ذلك. أتذكر أيضا أن تلك القطعة بالتحديد كان يفضّلها السير جورج عن كل قطع المجموعة، ولهذا طلب الاحتفاظ بها».

في الوقت الذي انتهى فيه السير تشارلز من حديثه، كان هولمز قد قفز من مكانه وقطع نصف المسافة إلى الباب في غمضة عين.

صاح هولمز قبل أن يخرج قائلا: «أشكرك.. كنت في أمَسّ الحاجة إلى تأكيدك».

***

«ما فائدة كل هذا؟». سألته ونحن جالسان في العربة، عائدين إلى شارع بيكر.

«فك الشفرة.. لقد اتضح لي أن الإناء الكانوبي هو عنصر رئيسي في هذا اللغز».

---

* الأواني الكانوبية: نوع من الأواني استخدمها المصريون القدماء خلال عملية التحنيط لحفظ أحشاء الموتى.

«إناء كانوبي؟».

«إنه إناء يحتوي على أعضاء الموتى الجافة الملفوفة بالكتان.. وإناء حنت-تاوي مثير للاهتمام؛ فهو على شكل رأس كلب، وبه...».

***

عندما وصلنا، رأيت سكويلز يجري نحونا بسرعة فائقة، ويصطدم بهولمز. ودون أي كلمة اعتذار، أكمل عدوه إلى آخر الشارع. لم ينزعج هولمز من هذا الحادث، بل ابتسم وقال: «هذا الصبي بارع».

في مدخل المنزل، كان هولمز يمسك بورقة صغيرة في يده.

«إنها حتما من سكويلز». أخبرته.

«طريقة خفية لنقل المعلومات، وبالطبع تؤدي الغرض.. سيكون لذلك الصبي مستقبل مشرق».

فحص هولمز الورقة، وأومأ برأسه في رضا وهو يقول: «الآن نحن في المرحلة الثانية من اللعبة. وعلينا أنا نتوخّى الحذر، فطريقنا محفوف بالمخاطر».

«وماذا تريدني أن أفعل؟».

«اصعد الدرج، وأخبر الآنسة آندروز أنك حجزت رحلتنا إلى مصر. وقل لها أيضا أنني ما زلت أنهي قضية أخرى قبل سفرنا، وسأدع لك التفاصيل. ففي النهاية أنت تجيد التخيل والإبداع».

«ثم؟».

«تناول معها الشاي ثم أخبرها مثلا أن ثمّة مريضا بحاجة لمساعدتك».

«هولمز...».

قاطعني بسرعة غير عابئ بما كنت سأقوله: «قابلني في تمام الساعة الثامنة في الحانة الصغيرة داخل فندق برينس ريجنت الذي يقع في شارع ساليزبري، بالقرب من فندق كونواي».

«أعتقد أن لا فائدة من السؤال عن السبب».

رد مؤكدا: «تذكر.. الساعة الثامنة بالضبط». ثم خرج من الباب بهدوء، عائدا إلى شارع بيكر ثانية.

***

من بين جميع الأماكن التي قابلت هولمز فيها، كان هذا الفندق أقلهم راحة.

وصلت قبل الموعد المحدد بربع ساعة. وجدت الحانة ممتلئة عن آخرها بسكارى مزعجين للغاية، بدا لي من سلوكهم أنهم قد قضوا ساعات طويلة

في هذا المكان. كان الهواء ممتلئا بدخان التبغ الكثيف بحيث يصعب على المرء الرؤية بوضوح. بصعوبة شققت طريقي، مررت بمجموعة من البحارة الثملين الذين بدوا وكأنهم سيفقدون القدرة على الوقوف بثباتٍ في أي لحظة. في النهاية استطعت إيجاد مقعد بالقرب من السّاقي الذي لفتُّ انتباهه. كنت على وشك طلب مشروب عندما جلس رجل بجانبي فجأة، وصاح للساقي قائلا: «أعطني نصف لتر من أفضل أنواع البيرة لديك!».

سحبت كم الرجل برفق وقلت في أذنه: «اطلب لي مثلك يا هاردكاسل».

التفت لي وعلى وجهه ملامح الدهشة. قال: «دكتور واطسون! أنت هنا بالفعل! أين السيد هولمز؟».

«أنا هنا». انبعث صوت هولمز من مكان ما بالغرفة التي تملؤها سحب من الدخان. ثم أردف: «ليس هناك وقت للشراب.. فلدينا سيدة علينا أن نفاجئها، ومجرم علينا القبض عليه».

***

فور خروجنا إلى الشارع، وجَّه هاردكاسل سؤالا إلى هولمز، بنبرة تنم عن انزعاجه، قائلا: «ما فائدة كل هذا، سيد هولمز؟ لقد كان لديّ أمل أن أعود إلى المنزل مبكرا الليلة كي أتناول العشاء مع زوجتي في هدوء».

«أعتذر إذا كنت قد تسببت في حرمانك من نعيم هذه الليلة، لكنني ظننت أن تواجدك سيكون مهما أثناء القبض على المجرميْن المتورطيْن في جريمة سرقة المتحف». رد هولمز بعجرفة متعمدة.

حاول هاردكاسل ألا يُبيّن دهشته فافتعل نوبة سعال كاذبة، وقال بعدما توقّف: «لقد كان هذا سريعا، حتى بمقاييسك سيد هولمز».

«هل جلبت معك أصفادك؟».

«أجل، وأمر تفتيش كما طلبت. ولكن.. ترى سنعتقل من؟».

«ستعرف كل شيء في الوقت المناسب. والآن أيها السيدان، نحن على وشك دخول فندق كونواي. سنفترق، وسيأخذ كل منا مقعده في البهو. اشغلا نفسيْكما بتصفّح جريدة أو بالنظر في قائمة طعام.. افعلا أي شيء يجعل

وجودكما يبدو طبيعيا. وأخيرا، أبقيا أعينكما على مكتب الاستقبال، وانتظرا إشارة مني للتحرك».

إن فندق كونواي هو فندق متوسط المستوى، يقع على بُعد نصف ميل من محطة قطار «تشارنغ كروس». وبسبب قربه من محطة القطار، فقد اشتهر بتردد رجال الأعمال والفرق المسرحية عليه. والحق أنني أردت حجز غرفة به بعد رجوعي من الهند مباشرة، ولكنني عدلت عن الفكرة بسبب غلاء ثمنه، فوقتها كان دخلي يوميا أحد عشر شلنا ونصفه فقط.

تفرّقنا عند دخولنا. كان البهو مكتظا بالناس، والمقاعد المتاحة قليلة للغاية. أجلست نفسي بالقرب من أحد الأعمدة وأخذت أتصفّح جريدة «وستمنستر»، بينما جلس هاردكاسل خلف شجرة صناعية قصيرة. أما هولمز فقد جلس على مكتب، يكتب خطابا ما. بدا مستمتعا بكل لحظة تمر.. مستمتعا بحيلته. ويستخدمنا أنا وهاردكاسل كدُميتيْن في مسرحيته المُعقدة. لقد أعطاني هولمز بالطبع بعض المعلومات المحدودة عمّا سيحدث، لكنه احتفظ بتفاصيل حبكته كاملة لنفسه. شعرت بالارتياح حيال هذا، ولعلمي أيضا أن هاردكاسل لم يعرف شيئا مُطلقا. هذه هي عادة هولمز، ألا يُخبر الجهات الرسمية بأي تفاصيل إلى أن يحين الوقت المناسب لأن يفاجئهم بذكائه.

لم أكن أعلم وقتها أن مثلما نحن نراقِب من حولنا، أن ثمّة من يراقبنا. في أحد أركان البهو، كان ثمّة رجل طويل القامة، سمين الوجه، وأشقر الشعر، يُراقبنا بعينيه اليقظتين بينما يُدخن سجائره الروسية واحدة تلو الأخرى. ومثل لاعب شطرنج محترف كان يُدرك رغم ألاعيب خصمه أنه لم يزل صاحب اليد العليا.

***

لم ننتظر طويلا.. فبعد حوالي عشرين دقيقة من وصولنا، بدأ عدد المتواجدين بالبهو يقل. رأيت شابة يبدو عليها الانزعاج الشديد تدخل الفندق وتسرع الخطى إلى مكتب الاستقبال. استطعت أن ألاحظ، من مكاني، بسهولة احمرار وجهها، وعينيها المتسعتين من فرط القلق، ولمعان العرق الذي يتصبب من جبينها.

تلك الشابة هي كاتريونا آندروز..

راقبها ثلاثتنا من أماكن مختلفة، بينما وقفت تطلب من موظف الاستقبال طلبا عاجلا. نظر الموظف في سجل الضيوف وأعطى الشابة المعلومة التي بدت في أمَس الحاجة إليها. أسرعت كاتريونا نحو المصعد، وبعدما اختفت وراء باب المصعد المعدني مباشرة، قفز هولمز من مقعده وذهب سريعا ليسأل موظف الاستقبال بعض الأسئلة. وحينما انتهى، أشار لنا بمبالغة ممثل مسرحي.

«إنها في طريقها للغرفة رقم 201. سنصعد السلم حتى نمهل عميلتنا الجذابة وقتا كافيا لكي تستقر هناك».

حرّك هاردكاسل شفتيه مرددا كلمة «عميلة» في دهشة وهو ينظر إليّ، ورغم أنه لم يُصدر صوتا، لكن هولمز فهم وقطع حبل أفكاره قائلا: «سأشرح لك كل شيء فيما بعد».

هززت كتفيّ وأنا أنظر للمفتش نظرة عطف.

لحظات وكنا نقف في الرواق، المُضاء بالكثير من المصابيح، أمام باب الغرفة رقم 201.

همس هولمز قائلا: «قد لا تحتاج للضغط على زناد سلاحك يا واطسون. أريدك فقط أن تحمله كي يفهموا أننا جئنا في أمر هام. وأنت يا هاردكاسل، كن جاهزا بأصفادك لأنك ستحتاجها. هل أنتما مستعدان؟».

أومأنا برأسيْنا..

فتح هولمز باب الغرفة بقوة.

رأينا مشهدا غير عادي: في منتصف الغرفة وقف رجل وفتاة، يحتضنان بعضهما بعضا بحميمية. تلك الفتاة كانت كاتريونا، وكان الرجل الذي معها طويل القامة، لامع البشرة، شعره رمادي ناعم يدل على كبره.

انفكّا من عناقهما فور دخولنا، ووقفا يحدقان في وجوهنا في ذهول تام. وضعت كاتريونا يدها على فمها لتكتم صرخة رعب كانت ستصدرها.. ففي النهاية، لقد كشفنا أمر خيانتها.

أخذ هولمز خطوة للأمام، وانحنى بجسده وهو يقول: «مساء الخير.. يا له من مشهدٍ مؤثر حقا! أب يجتمع بابنته بعد فراقٍ مؤلم.. أيها المفتش

هاردكاسل، دعني أقدم لك هذا الثنائي السعيد: الآنسة كاتريونا آندروز وأبوها السير أليستير الذي ظننا أنه اختطِف».

«يا لك من شيطان!». صرخت الشابة.

في غضون ثوانٍ تبدّلت ملامحها. تخلصت بسهولة من مشاعر الصدمة والفزع، وخطت خطوة باتجاهنا، جسدها تكاد تحرقه نيران غضبها، ووجهها يأكله الغيظ والحنق. وفجأة صرخت بكلمات غير مفهومة وجرَت نحو هولمز، يداها ممدودتان، وأصابعها ملتوية كالمخالب. وقبل أن يحظى بفرصة الدفاع عن نفسه، كانت قد قفزت فوقه، صارخة، وأخذت تخدش وجهه. وقع هولمز على ظهره، ليس بوسعه أن يفعل شيئا أمام هجوم الفتاة الوحشي. لم يدرِ هولمز كيف يتصرّف.

أسرعتُ لأنقذ صديقي. وبمساعدة أبيها، استطعت أن أسحبها بعيدا عن هولمز وأعوق حركتها. لاحظت أنها قوية جسمانيا، وغضبها قد ضاعف قوتها لدرجة أننا لم نقدر على تركها إلا بعد مرور بعض الوقت. في البدء، صارعتنا بعنفٍ كي تنفك وتهاجم هولمز ثانيةً كحيوانٍ مفترس، لكن أباها ظل يأمرها أن تهدأ، باللطف والحزم، إلى أن استجابت. لقد أدركَت أن ليس ثمّة فائدة لما تفعله، مما جعلها تتحكم في غضبها تدريجيا، فاسترخى جسدها، وتبدّل السخط بالدموع، فألقت بنفسها في أحضان أبيها وشرعت في البكاء.

صُدِم هولمز من هجومها الشرس. أخرج منديلا من جيبه ومسح على جبينه. للحظة انتُزِع هولمز من موقف كان فيه في موضع سيطرة، وألقيَ به في موقفٍ آخر غير متوقع حيث كان الضحية. وقف ينظر إليها بغرابةٍ وهي تبكي، يلتقط أنفاسا قصيرة غير منتظمة، وعيناه ترمشان لا إراديا.

انزعاجه لا يوصف..

«هل أنت بخير، سيد هولمز؟». سأله هاردكاسل بينما يضع يده على كتفه.

أومأ هولمز برأسه بحدةٍ. وجهه أبيض شاحب كوجه ميتٍ إلا من بعض الخدوش الحمراء حول رقبته التي أحدثتها أظافر كاتريونا. وكان ثمّة بعض الخدوش العميقة التي سال منها دم.

قال هولمز محدثا هاردكاسل: «أقترح عليك أن تأخذهما إلى سكوتلاند يارد الآن، ثم إذا أردت أن تأتي الليلة إلى شارع بيكر كي تتناول معي مشروبا،

فسأخبرك ببعض التفاصيل حول تورط هذين الاثنين في جريمة قتل السير جورج فافيرشام».

-١١-

شيرلوك هولمز يشرح

«إنني لن أفهم النساء يوما يا واطسون.. دائما ما يتصرّفن دون عقلانية أو منطق، ودائما ما تطغى مشاعرهن على تصرفاتهن. ومثال على هذا ابنة آندروز؛ تخطط بدقة لجريمة قاسية شنيعة مع أبيها، وبعدما تنكشف الخطة تثور وتغضب وتهاجم كالوحوش، ثم تنهار باكية في النهاية! أنا مستعد أن أتعامل مع قسوة البروفيسور موريارتي وخبثه كل يوم، فعلى الأقل ثمّة منطق وفكر وراء كل أفعاله! لكن مع النساء، توقع كل ما هو غير متوقع».

كان هولمز في حالة من الهياج، يعلو صوته حينا وينخفض حينا، إلى أن أنهى خطبته التي تبين مدى كرهه للنساء بشكلٍ عام، وللآنسة كاتريونا آندروز على وجه التحديد.

عدنا مرة أخرى إلى غرفة الجلوس في شارع بيكر. وهناك داويت جروح هولمز. ورغم أن الجروح بسيطة، إلا أن هولمز كان في غاية الانزعاج وأنا أسعفه. كان يرى هجوم الفتاة عليه إهانة لكرامته ولمقدار فهمه للأمور. وكنت أعلم جيدا أن غضبه لم ينتج عن لا عقلانية كاتريونا، بل لأنه أخفق في توقع أفعالها، فهولمز دائما ما يحب أن يكون على أتم استعداد أثناء تعاملاته مع أي شخص.

إن هجومها عليه أفقده أعصابه تماما..

لم أعلق على ثورته تلك، وفضّلت أن ألعب دور الشاهد الأبكم. وبعد مرور بعض الوقت، تنهّدت مُعلنا عن مللي، فسكت هولمز فجأة أثناء حديثه.

قلت بلطفٍ: «أرجوك، اجلس ودخن غليونك كي تريح أعصابك».

ضاقت عيناه، ورمقني بنظرة غريبة بها شيء من الشك، لكنه استجاب لاقتراحي في النهاية. جلسنا في صمتٍ لبعض الوقت، ثم قبل أن أتحدث عمّا جرى في هذه الليلة، سمعنا طرقا خفيفا على الباب ثم تفاجأنا بهاردكاسل يدخل. جلب كرسيا وجلس بجانبنا يُدخن غليونه قريبا من الموقد.

«والآن سيد هولمز، سأكون ممتنا إذا شرحت لي كيف أن السير أليستير آندروز وابنته متورطان في جريمة القتل وسرقة البردية المصرية. إنهما

مُعتقلان حاليا بناءً على طلبك فقط، لكن كي أحافظ على مركزي في العمل، فسأحتاج إلى معلومات أكثر».

أومأ هولمز برأسه، وقال بنبرة تنم عن استعادته لاتزانه: «بالطبع يا زميلي العزيز. ثمّة أربعة أشخاص متورطون في هذه الجرائم.. أربعة أشخاص يملأ الجشع قلوبهم، يسعون للحصول على لفافة الموتى. لقد اعتقلتَ اثنين منهم بالفعل، هما السير أليستير آندروز وابنته كاتريونا عديمة الضمير، ولكنهما تورّطا بعد سرقة بردية حنت-تاوي».

«إذن من اقتحم المتحف ونفّذ عملية السرقة؟».

«سيباستيان ملموث وتوبياس فيلشو».

كان هاردكاسل على وشك أن يسأل هولمز عن سر تأكده مما يقول، لكنه فكّر لوهلةٍ ثم عدل عن الفكرة. لقد تعلم –تماما مثلما تعلمت– أن من السذاجة مقاطعة هولمز أثناء حديثه.

«أظن أنك تعلم ملموث وصديقه الغنيّ فيلشو، أليس كذلك؟».

«بالطبع، لكنني لم أرهما من قبل. نحن الاثنان نختلف في تحركاتنا، سيد هولمز. لكن تأكد أننا نعلم بشأن ذلك الثنائي الغريب، ونعلم علاقتهما ببعضهما جيدا، لكنني لم أعتقد يوما أنهما قد يكونان قاتلين».

«إنهما فعلا كذلك». أخبره هولمز بنبرته الباردة.

وضع المفتش طرف غليونه في فمه. وبوجهٍ عابسٍ أخبر هولمز: «ولكن ثمّة خطأ في ما تقول.. لقد مات ملموث في حادثة إطلاق نار منذ أيام قليلة».

ابتسم هولمز وقال: «لا تصدق كل ما تسمعه عن ذلك الوغد. إنها إشاعات مبالغ فيها. صدقني، أيها المفتش، ملموث ما زال على قيد الحياة. ضع في الاعتبار أيضا أن الموت ليس بالأمر الهام بالنسبة لملموث وصديقه الحميم، فإنهما يسعيان إلى ما هو أهم، ويظنان أنه لن يتحقق دون لفافة الموتى.. يعتقدان أن اللفافة ستعطيهما الخلود».

«يا له من هراء!». صاح المفتش.

«بالطبع هذا هراء، لكن ملموث لا يعتقد ذلك؛ إنه يؤمن أن الخلاص في برديات سِتاف، ومستعد أن يقتل من أجل الحصول على اللفافة. لقد ظل يبحث ويُجرّب ويخوض مغامراتٍ في ممالك الظلام لعدة سنوات، فقط ليحاول أن يكتشف طريقة للتغلب على الموت. ومؤخرا استطاع الوصول إلى ما ظنه استجابة من السماء لصلواته النجسة: مخطوطة اعتقد أنها ستساعده على حل لغز بردية حنت-تاوي. ولذلك عقد العزم على وضع يده عليها بجميع الطرق؛ المشروعة وغير المشروعة. في النهاية اختار الطرق غير المشروعة، وبمساعدة صديقه، قام بسرقة البردية من المتحف البريطاني. أما عن القتل، فقد أضاف متعة إلى فعلته. لا تتعجب، فهو يتلذذ بهذا».

أخذ هاردكاسل نفسا عميقا، وبصوت مرتجفٍ قال: «لقد سمعت أنه غريب الأطوار».

«إنه أبعد من هذا.. إن الشر يسكن سويداء قلبه». أخبرته.

استكمل هولمز قائلا: «ولكن.. بعد الدراسة والتحليل، توصّلت إلى أن بردية المفتاح تلك لا فائدة لها؛ إنها محض رموز بلا معنى رسمها سِتاف بنفسه كي يُضل من سيكتشفون سره، أو بالأحرى ليُضل أولئك الذين لا يمتلكون ما يكفي من الفطنة والحكمة التي تؤهلهم للحصول على كنزه».

حك هاردكاسل رأسه، وقال: «هل ترجح أن بردية المفتاح –كما تسميها– هي مجرد خدعة ولا قيمة لها؟».

«بالضبط. إنها فخ نصبه سِتاف لمن هم غير مؤهلين للحصول على الكنز الذي لا يُقدر بثمن».

كتم المفتش ضحكة وهو يقول: «يا له من مخادعٍ ماكر!».

أردف هولمز قائلا: «والآن، سأخبركما بسلسلة الأحداث التي تبعت جريمة السرقة كما استنتجتها: فور حصول ملموث على المفتاح وبردية حنت-تاوي، اعتقَد أنه من السهل فك شفرة الرموز التي ستوصله في النهاية إلى لفافة الموتى. لم يكن هذا إلا تأثير كبريائه التي أوهمه أن الأمر سهل إلى هذا الحد، ولذا فقد أخطأ بالطبع.. بل اتضح أنه لم يفهم الأمر برمته! ولأنه لم يكن يعلم أن بردية المفتاح بلا قيمة، فقد لجأ لمساعدة خبير. تقرّب من السير جورج فافيرشام، وطلب منه أن يساعده لكنه رفض. فالسير جورج أراد اكتشاف اللفافة بنفسه كي يتغلب على عدوه آندروز، ويحفر اسمه في

سجلات التاريخ بحروفٍ من ذهب. لذلك لم يكن ليُساعد هذين الوغدين للوصول إلى نفس هدفه».

ثم استكمل قائلا: «إننا لا نستطيع التأكد إذا كان فافيرشام قد قتِل عمدا أم أن موته كان نتاج خلاف بينه وبين المجرمين بعد زيارته في منزله. لكن ما هو واضح لي الآن أن الاثنين قتلا السير جورج فافيرشام وسرقا أشياء من منزله كي يبدو الأمر كجريمة سرقة عادية».

«إذا كان ما تقوله صحيحا، فكلاهما إذن متورط في قضية قتل».

«على أقل تقدير». رد هولمز وهو يعيد إشعال غليونه ويبتسم. بدا في أسعد لحظاته بينما يشرح تفاصيل قضية معقدة لمُستمعيْن مذهوليْن.

أكمل بعد ذلك قائلا: «لجأ المجرمان بعد ذلك لمساعدة السير أليستير آندروز عديم الضمير، الذي وافق على طلبهما بشرط أن يُنسب إليه اكتشاف لفافة الموتى بعدما يحصلان على محتواها. لكنه واجه صعوبة في فك الشفرة، ومن فرط يأسهم طلبوا يد العون من فافيرشام». ثم ضحك هولمز وقال: «لقد عجزت القوى العقلية لملموث، وفيلشو، وآندروز وابنته على فك شفرة وضعها رجل مات منذ ما يقرب من ألفي سنة. وكما أراد سِتاف المخادع، أخفقوا في فهم الرسالة بالاستعانة ببردية المفتاح. خدعته عبرت القرون لتعوقهم عن تنفيذ خططهم المشينة. وعندها أشركوني في هذا الأمر...».

«أشركوك في الأمر؟!».

«أجل. دعني أشرح لك مقصدي.. بالطبع كان ملموث يعلم بشأن الدراسة التي كنت قد ألّفتها عن الشفرات، وأدرك أنني الشخص الوحيد القادر على فك شفرة سِتاف. وبالفعل كان محقا.. فعندما تجاهلت أمر بردية المفتاح، اكتشفت أن الرسالة الحقيقية التي تحمل موقع لفافة الموتى هي شفرة في بردية حنت-تاوي المشفرة بدورها. من حسن الحظ أنني تعاملت مع هذا النوع في قضيتين من قبل، أهمهما قضية نقوش الفاتيكان حيث أثبت الكاهن براعته في الخداع».

ثم أكمل قائلا: «ولكي يتقرّب مني فريق المجرمين، أمعنوا التفكير في جميع السبل الخبيثة الممكنة، لعلمهم أنني لن أستجيب بلطفٍ إذا طلبوا مني مساعدتهم مباشرةً. كما أن ملموث ذكي بما يكفي ليُدرك أنني أشك في حقيقة تنفيذه لجريمتي سرقة المتحف وقتل الحارس الليلي، ولكي لا أمَس

تلك الحقيقة، دبّر إشاعة موته: قتل أحد العاملين بعزبة فيلشو، وهشّم وجهه حتى صار المسكين بلا ملامح، ثم أذاع فيلشو إشاعة موت سيباستيان ملموث إثر حادثة إطلاق نار أثناء ممارسته للصيد، محاولا بذلك حجب أحد سبل التحقيق التي قد ألجأ لها. لكنهما كانا يعرفان جيدا أنهما لن يستطيعا خداعي بمثل هذه الحيلة الواضحة، حتى إذا نعا موته العالم كله. كانا متأكدين أنني سأبحث وأتحقق إلى أن أساق كما الأغنام إلى منزل ريفي بعزبة فيلشو في نورفولك، حيث تركوا بعض الأدلة التي سيسهل عليّ الحصول عليها، والتي بها المعلومات اللازمة للعمل على المفتاح وبردية حنت-تاوي. وقد عملت عليهما بالفعل، كمحقق وليس كعالم آثار، حتى حللت لغزهما».

«حقا؟». ابتسم هاردكاسل وهو ينحني بجسده للأمام في حماسٍ ويقول: «أنت مُذهل يا سيد هولمز.. حقا مُذهل! هل توصلت فعلا إلى مكان لفافة الموتى؟».

ابتسم هولمز وقال بهدوء: «لقد توصلت إلى المكان الذي كانت فيه. لكن دعني أنهي قصتي كاملة قبل أن أتطرّق إلى هذه النقطة. بعدما حللت اللغزين، أرادا معرفة ما توصلت إليه، وعند ذلك ظهرت كاتريونا آندروز في الصورة. أعطتني معلومات كافية تحثني على التصديق أن أباها قد خطِف وأجبر على العمل على البردية لصالح ملموث. وبما أنها كلفتني بمهمة البحث عن أبيها، فهذا يُعطيها كامل الحق في البقاء بجانبي. لقد أرادوا إقناعي أنهم حلوا الشفرة لكي أطاردهم إلى أن أصِل لمقبرة سِتاف في مصر، لكن الحقيقة هي أنهم سيتبعونني كي يتوصلوا إلى مكان اللفافة. والحق أنهم أخطأوا خطأ فادحا بظنهم أن لفافة الموتى في مصر بينما هي ليست هناك.. لفافة الموتى في هذا البلد الذي نحن فيه».

صاح المفتش: «هنا! أين؟!».

نظر له هولمز ببرودٍ وقال: «ستعرف عندما يحين الوقت المناسب. إنهما انتظرا حتى أتأهب للرحيل إلى مصر.. وكانت تصل لهما تقارير مفصلة عني، تبعثها لهما جاسوستهما الآنسة كاتريونا آندروز. عرفت موقع الفندق الذي أقام فيه والد الفتاة بمساعدة الفتيان الجواسيس الذين يعملون لدي. أرسلت لها برقية، منتحلا شخصية السير أليستير، وطلبت منها أن تأتي إلى الفندق الساعة الثامنة مساءً، وأشرت إلى أن الأمر بالغ الخطورة. وبهذا استطعنا اعتقال مجرمين من أصل أربعة».

«وماذا عن ملموث وفيلشو؟». سألته.

«إنهما شديدا الذكاء لدرجة أنهما قد علما بالتأكيد أمر القبض على آندروز وابنته».

«يا لها من قضية معقدة سيد هولمز. صدقني، إنني لا يسعني سوى تقدير جهودك التي بذلتها منذ بدء التحقيق إلى الآن، رغم أنها لم تقربنا بعد من الطريق الذي سيوصلنا للقبض على القاتليْن وإعادة بردية حنت-تاوي إلى المتحف البريطاني».

«إنك لم تحظَ بنعمة الصبر يوما». قال له هولمز بهدوء وهو يتمدد في مقعده، ثم أردف يقول: «أعتقد أننا سنقبض على المجرمين الآخرين في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة، وسنعيد كل ما سرق إلى المتحف بأمان».

«يسعدني سماع ذلك. ولكن اسمح لي أن أعود إلى سؤالٍ سألته لك منذ قليل: أين تلك اللفافة اللعينة؟».

-١٢-

زيارة إلى منزل إلمز

كان هولمز مستمتعا بتسليمه مقاليد القضية إلى هاردكاسل عند هذه النقطة المحورية، وتملك منه السرور أيضا بسبب ما توصّل له من استنتاجات حتى الآن. وببراعته المعهودة استطاع أن يراوغ هاردكاسل، فلم يُعطِه إجابة عن أسئلته المتكررة حول مكان لفافة الموتى. أعلم أن صديقي يعتقد أنه قد زوّد المفتش بالمعلومات الكافية التي ستمكنه من إكمال تحقيقاته الخاصة دون الحاجة إلى مساعدته. فكالعادة، يحب هولمز العمل بمفرده، وحينما يبدأ التحقيق في قضيةٍ ما، فإنه يبذل قصارى جهده لكي ينهيها بنتائج مُرضية.

قال هولمز بحِدة محاولا إفحام هاردكاسل: «كما أوضحت لك مسبقا، خلال الثماني وأربعين ساعة المقبلة ستكون لفافة الموتى بحوزتي، وسألقي القبض على ملموث وفيلشو».

«لكن هذا عمل الشرطة!».

«إذن قوموا به.. لن أمنعكم. لكن دعني أذكرك أنك من طلبت مساعدتي في بادئ الأمر، وإن الفضل يعود لي لإحضاري لك اثنين من المجرمين الأربعة». تمددت ملامح هولمز المنكمشة، ونقر هاردكاسل على ركبته وهو يقول: «إنني مثل كلب صيدٍ وحيد.. أفضِّل العمل بمفردي.. وأنفي الآن يشتم رائحة قوية.. رائحة تشي بقرب الفريسة. ولهذا، فلن أدَع الأمر للشرطيين».

انتفض هاردكاسل من مكانه وقال: «أنت تقترف خطأ فادحا، سيد هولمز! وحديثك عن كلاب الصيد لن يحل القضية! لقد ذكَرت أنك لن تدع الأمر للشرطيين.. بلى، أنا شرطي، وأفتخر بكوني شرطيا. بل وإنني أرى إخفاءك عنا معلومات مهمة كهذه لهوَ من تصرفات الهواة».

مضى هاردكاسل نحو الباب ثم التفت ليخاطب هولمز قبل رحيله قائلا: «أتمنى أن تغير رأيك، سيد هولمز. وإن فعلت، فبالطبع أنت تعلم كيف تجدني». وبكلمات الوداع هذه، خرج هاردكاسل وأقفل الباب بقوة خلفه، ونزل درجات السلم.

ابتسم هولمز بلطفٍ، ثم أمسك بَشكورا وأخذ يقلب جمرات الموقد التي بدأ توهجها يتلاشى، ثم قال لي أخيرا: «سيتخلى عن وجهة نظره عندما يرى

بعينه ملموث وفيلشو واقفيْن خلف القضبان، وتعود البردية الثمينة إلى المتحف بسلام».

«أظنك تعتقد أن السير جورج فافيرشام هو من يحتفظ بلفافة سِتاف طوال هذا الوقت، هل هذا صحيح؟».

كاد البشكور يقع من يد هولمز وهو يقول: «مذهل يا واطسون! لقد اتبعت تسلسل الأحداث ببراعة!».

«كنت أسمع وأراقب في صمتٍ.. لقد تدرّبت على هذا لسنين طوال».

«أجل، أجل، بالطبع. ولهذا عليّ توخّي الحذر فيما بعد وإلا ستستهزئ بقدراتي الخارقة. أحسنت يا واطسون، إنني تفاجأت حقا من توصّلك لهذا الاستنتاج. أخبرني إذن ما فهمته من الأحجية، ولنرَ إذا كان ثمّة أي ثغرات».

ابتسمت..

شعرت بالسعادة لأنني فاجأت صديقي مثلما فاجأني هو مرات عديدة.

استرخيت في مقعدي وقلت: «حسنا.. ليس بوسعي القول أنني قمت باستنتاجات مدهشة، لكن استفساراتك عن الإناء الكانوبي المأخوذ من مقبرة حنت-تاوي، وحقيقة امتلاك السير جورج فافيرشام له، أثارت شكوكي. ولأنني أعلم أن سِتاف كان ماكرا، وأن مثل هذه الآنية تستخدم لحِفظ أحشاء الموتى المهمة، فاستنتجت أن ذلك الكاهن الخبيث قد خبّأ لفافة الموتى بداخل الإناء. لكنني عجزت عن معرفة كيفية اكتشاف السير جورج لهذا السر، وحقيقة أنه لم يعلن عن اكتشافه لسنوات طويلة بدت لي غير واضحة على الإطلاق. والآن، كما ترى، معرفتي لا تزيد كثيرا عن هاردكاسل».

قال هولمز: «لا تكن قاسيا على نفسك يا واطسون. إن ما ينقصك علمه هو ما ينقصني أيضا».

ثم أردف: «أنت محق بشأن فافيرشام، فقد اكتشف أن لفافة الموتى مخبأة في الإناء بعدما فك شفرة البردية التي استخرجت من مقبرة حنت-تاوي.. وقد فعلتُ مثله تماما، وعرفت حينها أن تلك المعلومة ستتضح لمن لديه القدرة على التحليل، ولهذا لم ولن يقدر السير أليستير آندروز على معرفتها. أما فافيرشام، فقد اتبع نفس المنهج الذي اتبعته في حل اللغز، وهو أن ينظر

بعين العالِم لا خبير الآثار. كان سِتاف يعلم أن من سيسعون وراء مخطوطته السحرية سيفترضون أنه خبأها في مقبرته السرية الخاصة، ولذا أراد أن يضللهم بوضعها في مقبرة الملكة حنت-تاوي، بالتحديد داخل الإناء الكانوبي».

أكمل هولمز قائلا: «قد يبدو للمسؤولين عن المتحف البريطاني أن طلب فافيرشام للاحتفاظ بالإناء بسيط وليس ذا أهمية، وهذا لأنهم يجهلون حقيقة أنه سيحتفظ بأهم قطعة أثرية وجدت في البعثة الاستكشافية بأكملها. أما بالنسبة لإخفائه أمر اكتشافه للفافة الموتى، فأنا لا أعرف السبب بعد. هذه إحدى قطع الأحجية المفقودة. ربما لأن فافيرشام يمتلك ذلك الشغف الغريب الذي يمتلكه بعض جامعي التحف. فثمّة أشخاص يحتفظون بأعمالٍ فنية ثمينة يخفونها في غرفٍ مظلمة ولا يسمحون لأحد برؤيتها. فما يهم بالنسبة لهؤلاء، أنها ملكهم وحدهم. قد يكون فافيرشام منهم. أستطيع تخيل قدْر سعادته بإحباط عدوه آندروز الذي كان يسعى بكل ما أوتي من قوة لإيجاد القطعة الأثرية التي تحصّل عليها السير جورج».

«ربما هو ميت الآن.. لا أعلم».

«مثلما يعرف ملموث، بإمكان الموتى إخبارنا بأمور عديدة أحيانا.. سنذهب إلى بيت فافيرشام في كِنت غدا كي نبحث عن الحقيقة».

***

وبينما يدور حديثي هذا مع هولمز، كان السير آندروز مستلقيا على سرير صلب بداخل زنزانة في سكوتلاند يارد. لم توجّه له أي تهم بعد، لكنه ذاق مرارة السجن. وحلمه بالشهرة، وبأن يكون أحد أهم علماء الآثار في العالم تطاير كالرماد في لمح البصر. ظلّ يحدق في قضبان النافذة التي يتخللها ضوء القمر الشاحب، لم يكن ثمّة مصدر آخر للضوء. امتلأت عيناه بالدموع. شعر بالغضب يتملك منه.. غضب من حماقته وسذاجته، وأخذت نيران السخط تزداد اشتعالا في صدره وكأن موقدا قد استبدِل بقلبه. ظلت ألسنة اللهب تعلو وترتفع حتى كادت تحرق أحشاءه. لم يشعر بالراحة قط، فتمدد على جنبه، ولكن لم يحدث تغيير. كراهيته لذاته في هذه اللحظة حطّمته.. تدافعت أنفاسه وكأنها تود الهرب من جسده، فاستلقى على ظهره مجددا. اشتد الألم، وضاق صدره وكأن ثمّة حِملا هائلا يجثم فوقه. تسارعت ضربات قلبه، فصار كماكينةٍ خرجت عن السيطرة، وأذناه تهتزّان بشدة من أثر

ذبذباتٍ مرتفعة لا يسمع غيرها. كاد قلبه ينفجر، فصرخ يطلب النجدة قبل أن يفقد وعيه.

***

كان السير جورج فافيرشام يعيش في منزل «إلمز»، وهو منزل كبير يقع على أطراف بلدة «لي» بمقاطعة «كِنت». استأجر هولمز عربة يجرّها حصان، وقادها بنفسه لمسافة تقرب من السبعة عشر ميلا.

«إذا كنا مراقبيْن، فيسهل على من يراقبنا كشف موقعنا بسهولة الآن. ففي النهاية، نحن لسنا على متن قطار، ولذا علينا أن نسرع». أخبرني هولمز ونحن في الطريق.

قضينا أغلب رحلتنا في صمتٍ. كان النهار دافئا، وثغر الشمس يتسع بابتسامة حانية تبعث السكينة في النفوس. وكلما قطعنا مسافة أكبر، تبدلت المناظر الطبيعية الخلابة من حولنا. مررنا بنهر التيمز الداكن، بسكونه المخيف، حتى ابتعدنا عن قلب المدينة الرمادية الكبيرة التي بدت وكأن حلقة من الدخان تغلفها من الخارج.

مضينا في قِفار مليئة بالتعرجات والمنحنيات، حتى وصلنا لمنطقةٍ بها مجموعة من الفيلات. لم نستغرق طويلا لنجتاز ممرات تحفّها من كل جانبٍ أشجار كثيفة لم تصل إليها يد الإنسان المُفسدة بعد. رحلتنا إلى بلدة «لي» جعلتنا نمُر بثلاث مقاطعات: ميدلسكس، وجزء من سوري، ثم أخيرا كِنت. ورغم مشقة السفر، إلا أنني استمتعت بكل ما شاهدته خلال الرحلة.

فور وصولنا لأطراف بلدة «لي»، أوقف هولمز العربة ليتفقد خريطته. لقد علمت من هولمز مسبقا أن منزل السير جورج فافيرشام يقع في الجزء الشماليّ من البلدة.

أشار هولمز بإصبعه إلى موقعٍ في الخريطة وقال: «ها هو المنزل يا واطسون.. يبعد عن هنا بأقل من ميلين. سنسلك الطريق القادم، من جهة اليسار».

ألقى هولمز بالخريطة على الأرض، ثم أكملنا المضي..

«لم أستطع جمع معلومات عن فافيرشام غير التي أخبرني بها السير تشارلز». قال هولمز بينما نسير في الطريق المشمس. ثم ما لبث أن

أضاف: «من الواضح أنه كان أعزب، يفضّل العيش بمفرده. كما قال السير تشارلز عنه: رجل انطوائي وكتوم. عاش في منزل إلمز بصحبة سكرتيره الخاص، جون فيليبس، وخادمه الوحيد داوسون. علمت أن المنزل معروض للبيع. فخاطبت وكيل العقارات لأرتب معه موعد زيارة اليوم. إن داوسون الآن في انتظار وصولنا، وسيأخذنا في جولة حول المنزل».

«وماذا عن فيليبس؟».

هز هولمز كتفيه وقال: «لا أعلم أين يكون. إنه على الأرجح يبحث عن عمل، أو ربما قد وجد عملا بالفعل. لكن لا تقلق؛ سيخبرنا داوسون بالتفاصيل اللازمة».

وبعد هذه المحادثة القصيرة، غرق كلانا في الصمت إلى أن وصلنا لوجهتنا.

***

أشعة الشمس ذاتها التي أنارت طريق رحلتنا إلى «كِنت»، شقّت طريقها إلى نوافذ مستوصف السجن المتسخة. شعاع ضوء خافت، أرهقته رحلة عبوره أروقة السجن الكئيبة، قبّل أخيرا خدّ السير أليستير آندروز الرمادي المُنهَك، مانحا إياه لونا كهرمانيا خفيفا. جلست ابنته كاتريونا على طرف سريره، ممسكة بيده. عروق يده الزرقاء انتصبت وكأنها ستشق جلده الشفاف وتهرب. أحسّت ببرودة يده.. أكثر برودة من الثلج، أكثر برودة من ذلك الخوف الذي تملكها الآن، أكثر برودة من الوحش الغاضب الذي ظلت تغذيه بداخلها طوال تلك الفترة.

نظرها ظل مصوّبا نحو شيء ما أمامها، وامتلأت عيناها بالدموع..

سمعَت صوتا أشبه بصوت الحفيف قادما من ورائها. قدمت ممرضة نحوها وأمسكت بذراعها وقالت: «تعالي معي يا عزيزتي، أخشى أنه وقت عودتك». نظرَت نحو الضابط الذي وقف على بُعد ستة أقدام. عندما رأى الممرضة تساعد الشابة على الوقوف، تقدّم خطوة للأمام. انحنت كاتريونا وقبّلت جبهة أبيها البيضاء، ومضت نحو باب الغرفة مع الممرضة، وخلفهما الضابط الذي تولى مسؤوليتها قبل أن تخطو قدمها خطوة خارج الباب. كانت الشابة في حيرة من أمرها، التفتت لتلقي نظرة على أبيها فوجدت الممرضة قد تركتها لتغطي وجه السير أليستير بالملاءة.

***

بدت أسوار منزل «إلمز» ضخمة من بعيد. قادنا هولمز في طريق منحنٍ، تصطف الأشجار الكثيفة على جانبيه، وفجأة تراءى لنا مبنى المنزل وكأن أحدهم قد قرأ تعويذة أظهرت لنا المنزل في التو واللحظة. رأينا أمام المنزل قوسا من العشب وأزهار الربيع الزرقاء. المنزل نفسه مبنيٌّ على الطراز الجورجي، لونه كلون العسل يلمع تحت ضوء الشمس الزاهي. كان ثمّة بعض شجيرات لبلابٍ تزين المدخل الرئيسي، أما عن واجهة المبنى فلم يكن بها أي عيوب.

توقف هولمز بجانب المدخل. انفتح الباب الضخم عند وصولنا، وخرج منه رجل قصير، رماديّ الشعر، كتفاه منخفضان. نظر لنا بعينيه الكبيرتين الدامعتين، ثم حيّانا قائلا: «طاب يومكما أيها السيدان. أظن أنك السيد هولمز، وأنت بالطبع الدكتور واطسون».

قفز هولمز من العربة وصاح قائلا: «بالطبع، ولا بد أنك داوسون».

أومأ الرجل برأسه باحترامٍ وقال: «تفضلا. لقد انتظرتكما كثيرا. أظن أنكما بحاجةٍ إلى مشروب قبل أن نذهب في جولة حول المنزل».

«هذا لطف منك». رد هولمز.

مضينا داخل الردهة المدهشة، من تحتنا أرضية خشبية لامعة، ومن فوقنا ثريّات متوهجة، ومن حولنا العديد من التحف التي تبين مدى افتتان السير جورج بالحضارة المصرية، من بينها: أقنعة ملوّنة بألوان تنبض بالحياة، مختلف المجوهرات، خريطة عتيقة لحوض النيل مُعلقة فوق الموقد، وناووس ملوّن كبير موضوع بجانب السلم العريض.

لم يكن ثمّة ما يدل على حدوث سطو، الأمر الذي فاجأني. لاحظ هولمز ذلك أيضا. لكن داوسون لم يتفاجأ بشأن معرفتنا للجريمة.

«كان سطوا عاديا قام به بعض الأوغاد. أحدثوا فوضى في بعض الغرف، لكنهم لم يسرقوا إلا القليل. لحسن الحظ أن أغلب مجموعة السير جورج ما زالت هنا». قال داوسون، ثم مضى نحو الناووس ووضع يده عليه وكأنه حيوان أليف يربت على ظهره.

أكمل داوسون قائلا: «إن مجموعة التحف المصرية التي جمعها السير جورج ليست معروضة للبيع، بل سيتم نقلها إلى المتحف البريطاني في أسرع وقت».

«إنني أحترم ذلك بالطبع. وبما أنني مولع بتاريخ مصر أيضا، فأتساءل إن كان بإمكانك أخذنا في جولة لنرى مجموعة السير جورج».

«لا مانع لدي يا سيدي. والآن رافقاني من هنا وتفضّلا بالجلوس في غرفة الاستقبال إلى أن أحضر الشاي».

دقائق وعاد داوسون حاملا صينيّة عليها إبريق شاي وأكواب. تحدثنا معه عن المنزل ومساحته وطبيعة المناطق المجاورة وغيرها من الأشياء التي يتحدث عنها كل بائع ومشترٍ. لم يتناول هولمز كوب الشاي، ومن فرط حماسه طلب من داوسون أن يبدأ جولتنا على الفور.

كان منزلا مذهلا.. أحد أكثر المنازل المبهرة التي زرتها. كما أنه ضخم بالنسبة لرجل يعيش فيه بمفرده، دون زوجة أو عائلة.

«أحب السير جورج مساحة المنزل الشاسعة، جعلته يشعر بالحرية. لم يكن اجتماعيا قط، وكان يضل طريقه أحيانا داخل المنزل رغم تواجدي الدائم معه، وبالطبع السيد فيليبس».

قادنا داوسون إلى غرفة أسماها «معرض الآثار المصرية». كانت غرفة طويلة، ضعيفة الإضاءة، بها أهم القطع الأثرية التي ضمّتها مجموعة فافيرشام. قضى هولمز جزءا كبيرا من وقته يفحص جميع المقتنيات بعناية بالغة، بينما حاولت إشغال داوسون بالحديث معه عن موضوعات مختلفة. كانت هناك حقيبتان خاليتان، ودلائل أخرى على حدوث سطوٍ، لكنني لم ألحظ فقدان شيء ذي أهمية من المجموعة.. وربما أكون مخطئا.. لم أرَ أيضا شيئا قد يكون مهما في تحقيقنا، وبالطبع لم يوجد أي أثر للإناء الكانوبي. نظرت إلى هولمز فوجدت أن تعبيرات وجهه تشي بانزعاجه الشديد وخيبة أمله. وبينما نحن في طريقنا لمغادرة الغرفة، نظر لي هولمز وهز رأسه، معلنا أن محاولات بحثه باءت بالفشل.

«ما هذا؟». سأل هولمز بينما ننزل درجات السلم، عائدين إلى غرفة الاستقبال. توقف ثم أشار إلى غطاء ثقيل مزخرف يُغطي تجويفا في جدار الممر. وقبل أن يجيب داوسون على السؤال، تقدّم هولمز ونزع الغطاء بقوة، فظهر أمامنا باب. حاول هولمز فتحه ولكنه كان موصدا.

عبس وجه داوسون وقال بصوتٍ مضطرب: «هذا.. كان هذا مكتب السير جورج الخاص».

قال هولمز: «إذن هي غرفة سرية.. ليس من السهل العثور عليها، ومن المؤكد أن اللصوص لم يصلوا إليها».

ثم أردف قائلا: «أريد أن أرى ما بالداخل، فإذا نحن سنشتري المنزل، فعلينا أن نرى كل ما به من غرف، حتى وإن كانت سرية».

تردد داوسون وهو يقول: «لكن السير جورج لم يسمح لأحد بدخول الغرفة غيره».

«إنه ليس معنا الآن». أخبرته بلطفٍ.

ظل التردد مسيطرا عليه، كما ظل وفيا لسيده بعد موته.

لم يصبر هولمز أكثر من ذلك وقاطعنا قائلا: «افتح الغرفة من فضلك!».

ملامح الانزعاج الشديد لم تغادر وجه داوسون وهو يُخرج ببطءٍ مفتاحا من جيبه. فتح باب الغرفة، ودلفنا إلى الداخل واحدا تلو الآخر.

الغرفة صغيرة، خانقة، تحجب نافذتها الوحيدة ستائر مخملية ثقيلة، يمر من بينها رمح ضوءٍ رفيع يشق ثنايا الظلام، ليطعن أخيرا البساط فيلقى حتفه، وتتناثر بقع ضوء صغيرة من حوله. أسرع هولمز نحو النافذة وفرّق الستائر عن أحضان بعضها، فاكتست الغرفة بضوء الشمس الساطع. تسارعت ضربات قلبي حينما وقعت عيناي على الإناء الكانوبي ذي رأس الكلب، الذي وقف منتصبا على مكتبٍ مكتظ بالأوراق والوثائق. أومأ هولمز لي برأسه ورفع حاجبه وكأنه يعطيني أمرا بإشغال داوسون إلى أن يتفحّص الإناء. وضعت يدي على كتف الخادم، وقدته إلى النافذة، وطلبت منه أن يخبرني بالمسافة بين تلك الغرفة وباقي الغرف، وانهلت عليه بفيضٍ من الأسئلة. وبين الحين والآخر، كنت أتابع بعينيّ ما يفعله هولمز. وجدته يقترب في خلسة من الإناء، ويرفع غطاءه بحرص. عبس وجهه عندما نظر بداخل الإناء. أدخل يده بحذر، ثم أخرجها بعد لحظات دون أن يجد شيئا. اتضح أن لفافة الموتى لم تكن بالداخل.. كتم هولمز صرخة غضبٍ لا إرادية. التفت نحوه داوسون فجأة وكأنه سمعها، ليجد هولمز يلقي نظرةً على مجموعة الكتب الضخمة التي على الرف.

«أيها السيدان، إذا رأيتما ما يكفي، فأرجوكما أن نغادر ثلاثتنا هذه الغرفة الآن، فإنني لا أشعر بالارتياح لمخالفتي وعدي للسير جورج، حتى وإن لم

يكن معنا، كما قلتما. أعلم أنكما قد تعدّان ما سأقوله حماقة، لكن هذه الغرفة ستظل سرية إلى أن يتم نقل كل أملاك السير جورج».

كاد هولمز يستجيب لطلبه، لولا أن عينيه وقعتا على شيء لفت انتباهه. رأى صورة فوتوغرافية على مكتب السير جورج. أمسك بالإطار الفضّي، ألقى نظرة على الصورة، ثم أعطاها لي. رأيت رجلين يقفان بجانب زورق عند حافة مسطح ماءٍ ما، وفي خلفية الصورة أشجار كثيفة. كان الرجل الأكبر سنا واضعا يده على كتف الرجل الآخر في ودٍ ومحبة.

وقف داوسون بجانبنا، ثم قال: «هذان الرجلان هما السير جورج وسكرتيره الخاص السيد فيليبس. التقط أحد الخدم هذه الصورة مستخدما آلة التصوير الخاصة بالسير جورج».

«لقد ظننت أنك خادمه الوحيد». قلت.

«أجل، إنني الخادم الوحيد هنا في منزل إلمز. لكن ثمة خادما آخر يُدعى بيتس، هو من يدير منزل جريب».

اتسعت عينا هولمز في حماس وقال: «وماذا عن ذلك المنزل؟ وأين يقع؟».

«إنه منزل الريف الذي يذهب إليه السير جورج وقتما أراد الراحة والانعزال. يقع المنزل في جزيرة جريب ببحيرة أولسووتر».

«أخبرني إذن، هل احتفظ سيدك بأي آثار مصرية هناك؟». قال هولمز، محاولا إخفاء حماسه قدر الإمكان.

«ليس لدي شك في هذا، سيد هولمز، رغم أنني لم أزر ذلك المنزل من قبل. والحق أن الشخص الوحيد الذي سمح السير جورج بتواجده في الجزيرة، بجانب الخادم بيتس، هو السيد فيليبس. فكما تعلم، لم يكن للسير جورج أبناء، وكان يعتبر السيد فيليبس ابنه بالتبني. كان السيد فيليبس قريبا منه للغاية، لدرجة أن السير جورج طلب منه أن يدفنه...».

«أين؟».

«أعتذر، ولكن السير جورج أراد أن يبقى مكان دفنه سرا».

«لقد دُفِن في جزيرة جريب، أليس كذلك؟». سأله هولمز وهو يحدق في عينه وكأنه يحثه على إجابة السؤال.

لبث داوسون مليا، ثم أومأ برأسه وقال: «أجل، سيد هولمز. هذا ما أراده قبل موته.. أن يُدفن هناك. ذهب السيد فيليبس منذ أيام ليدفنه هناك».

-١٣-

في الطريق

بعدما كشف لنا داوسون هذا السر، أسرعنا إلى العربة واتخذنا طريق العودة إلى لندن. تفاجأ داوسون من رحيلنا السريع، لكن هولمز أخبره أن الجولة كانت كافية، وأن المنزل قد أذهلنا لأبعد درجة.

قال هولمز لداوسون قبل مغادرتنا المنزل: «سأخاطب وكيل العقارات في أقرب وقت لكي أعلمه بقرارنا».

وبينما نحن في طريق العودة، قال لي هولمز: «إنني لا أشعر بالارتياح حيال خداعنا لذلك الخادم، وهذا لأننا لم نتمكن من تحذيره من خطر ملموث وفيلشو اللذين سيتقفّيان أثرنا عمّا قريب. قد يكونان قد توصلا لمكاننا بالفعل».

«لكنهما لا يعرفان أن لفافة الموتى كانت مخبأة بداخل الإناء الكانوبي، أليس كذلك؟».

هز هولمز رأسه وقال: «بالطبع لا يعرفان، لأنهما كانا سيسبقانا لو عرفا بمثل هذا السر المُهم. ولكنهما متأكدان أننا على الطريق الصحيح، ولذا فعليهما اتباعنا. ولكي يعرفا محطتنا القادمة، فعليهما زيارة داوسون وسؤاله عن كل ما أخبرنا به».

«ومحطتنا القادمة هي بالطبع جزيرة جريب».

«بالضبط. فهناك ستنتهي رحلتنا، وسيُسدَل الستار بعد انتهاء هذه المسرحية السخيفة».

«وماذا عن ملموث وفيلشو؟».

«لا داعي للقلق بشأن هذين العصفورين في الوقت الحالي، فإننا بالطبع لن نفقدهما. أليس أمرنا عجيبا حقا يا واطسون؟ نحن الآن نطارد من قِبَل المجرمين وليس العكس!». ضحك هولمز ضحكة غريبة، ولمعت عيناه من فرط سروره، ثم ما لبث أن أكمل: «ولكن حتما ستأتي اللحظة التي سنتقابل فيها مع السيد سيباستيان ملموث المتوفّى، ومساعده الخبيث توبياس فيلشو. إنني أتوق شوقا لهذا اللقاء».

***

وبينما كنا على مشارف دخول لندن في وقت الظهيرة، كان داوسون يفتح باب منزل إلمز الرئيسي لزائرين مجهولين. تقدّم أحدهما ودَفع داوسون بقوة ناحية الردهة، بينما أغلق الآخر الباب. كان ذلك الرجل الذي دفَع داوسون طويل القامة، وجهه مستدير شاحب، وشعره أشقر طويل. اقترب من داوسون حتى صارت المسافة بين وجهيهما بضعة سنتيمترات قليلة. اشتم الخادم رائحة عطره الزكية التي تشي بأنه غني.

«لدي بعض الأسئلة لك». قال الرجل بهدوءٍ وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة، ثم ما لبث أن أكمل: «عليك أن تجيب عن جميع تلك الأسئلة، وتذكر جميع التفاصيل دون تردد». سكت الرجل لبرهةٍ. لاحظ داوسون نبرة التهديد التي تحدث بها.

وبصوتٍ منخفضٍ أقرب للهمْسِ، أضاف الرجل: «إذا نفّذت طلبي، ربما وقتها سأجعلك تعيش».

***

في المساء، ذهبت مع هولمز إلى محطة قطار «يوستن» لنستقل قطارا متجها إلى مدينة «بينريث»، والتي هي أقرب نقطة من «أولسووتر».

وعندما جلس كل منا في مقعده داخل العربة الخالية، قال هولمز: «هذا آخر قطار متجه إلى بينريث الليلة، ما يعني أننا سنسبقهما -لحسن الحظ- بحوالي ثماني ساعات».

«لكنهما قد يستقلان قطارا خاصا».

تبدّلت ملامح هولمز.

«لكنهما قد يستقلان قطارا خاصا». ردَّد قولي.

تفاجأت أن أمرا كهذا لم يرِد على ذهنه.

سألته: «ترى ما الذي ينتظرنا في جزيرة جريب؟».

«هذا سؤال يصعب أن أجيب عليه؛ فثمّة العديد من الجوانب المجهولة في هذه القضية التي تجعل من وضع الافتراضات المنطقية أمرا صعبا. لكنني

على يقين الآن أن اهتمام السير جورج فافيرشام بلفافة الموتى ليس فقط لكونها قطعة أثرية ثمينة».

«ماذا تعني؟».

«هل لاحظت الكتب التي كانت في الغرفة؟».

«لاحظت أنه امتلك مجموعة ضخمة».

«هل قرأت عناوين الكتب؟».

«لا، لم أحظَ بفرصة لإلقاء نظرة».

«كان ثمّة قسم كامل مليئا بالمجلدات المعروفة التي تناقش فكرة الموت، وفكرة الحياة بعد الموت. كما ضمّت المجموعة أيضا كتبا عن الروحانية، والتناسخ، واستحضار الأرواح، ومصاصي الدماء، وهناك بعض الوثائق الدينية والفلسفية التي تضم العديد من الآراء والفرضيات حول سر الموت».

شعرت وكأن يدا باردة أمسكت بقلبي وظلت تضغط عليه حتى كاد ينفجر. التمست من كلام هولمز تلك الحقيقة المُرّة التي لم أتوقعها.

قلت: «هل تظن أن فافيرشام أراد اللفافة ليستخدمها في إحياء الموتى مثلما يريد ملموث؟!».

«أعتقد ذلك.. رغم أن هذا الاستنتاج قد سبب لي دهشة؛ فكيف لعالم آثار شديد الذكاء أن يصدق أن مثل هذه اللفافة القديمة قد تمنحه سر الحياة بعد الموت، بل وتجعله خالدا أبد الدهر!».

«إنه الهوس يا صديقي. فعندما يصُب الإنسان تركيزه كاملا على هدفٍ أو شيء ما، فقد يصيبه الهوس المرَضي، ومن ثم يصير شبه أعمى، لا يرى أي منطق أو عقلانية، لكنه يرى فقط هدفه بوضوح. إن ذلك الهوس حتما أصاب ملموث.. من الواضح أن العقول النابغة هي الأكثر عُرضة لهذا المرض».

«أشكرك يا واطسون». أومأ هولمز برأسه وابتسم، ثم أكمل: «إذا كنا مُحقين بشأن فافيرشام، فهذا يفسّر أمر عدم إفصاحه عن اكتشافه للفافة الموتى طوال السنوات الماضية. إنه لم يحتفظ بها لقيمتها أو أهميتها التاريخية، بل لأنها الوسيلة التي ستنجّيه من القبر».

«لكنه مات في النهاية».

«وربما لم يُدفَن بعد. فاللفافة ليس لها استخدام بينما هو حي. ولكنه الآن...».

«ماذا تعني؟!».

انحنى هولمز بجسده للأمام، أغلق عينيه، وضغط بأصابعه الطويلة على قصبة أنفه، ثم قال بعدما فتح عينيه مجددا: «لست متأكدا مما أقوله يا واطسون. ولكن كل الأدلة تشير إلى اتجاهٍ واحد».

«وما هو إذن؟».

«أن فافيرشام قد وثق بجون فيليبس، سكرتيره الخاص، أو ابنه بالتبني كما قال عنه داوسون، وأعطاه الحق لتنفيذ كل الشعائر المكتوبة في لفافة الموتى على جثته، ظانّا أنه سيحيا مجددا».

«يا للفظاعة!».

«حقا إنه أمر فظيع ومثير للشفقة. فكما أشَرْتَ مُسبقا، هذا هو الهوس بعينه يا صديقي. إنه الهوس الذي يحجب عنك المنطق والعقل وحتى الأخلاق، ويجعل منك حيوانا بريا تجري فقط وراء فريستك».

اتكأ هولمز بظهره على كرسيه وتنهّد، ثم جال ببصره في سماء الليل التي تزينها أسراب من النجوم المتوهجة.

قال هولمز أخيرا: «هذه إحدى المرات القليلة التي أتمنى فيها أن يخيب ظني».

***

«تفضلا من هنا، ودعاني أرى ما أستطيع فعله».

أغلق ناظر المحطة الباب خلف الشابين، فتلاشى ضجيج المحطة تماما، ثم أشعل مصباحا وأمسك بدفتر كبير وسأل الشابين: «تريدان حجز قطار خاص إلى بينريث، أليس كذلك؟».

لم ينبس أحدهما بكلمة.

مرر ناظر المحطة إصبعه على الخانات التي تملأ صفحة الدفتر، ثم قال أخيرا وهو يبتسم: «نعم.. ثمّة قطار متاح».

***

لم أذق طعم النوم في تلك الليلة.

كان الجو باردا بداخل مقصورة النوم الضيقة. صور لنعوشٍ، وجثث تبعث فيها الحياة من جديد، وغيرها من الكوابيس البشعة، ظلت تلتهم خلايا عقلي طوال الليل. وعندما أشرق فجر اليوم الجديد، ارتديت ملابسي ووقفت في الممر أدخن غليوني وأراقب من النوافذ تجلي الشمس على أراضي الريف الشمالي. رأيت الضباب، من بعيدٍ، يسبح فوق الوديان والسهول، ورأيت تلالا تقف في شموخ رافعة رؤوسها الأرجوانية، وتنحني أمامها بعض الأشجار القصيرة، ويشهد على هذا المنظر العظيم مسطح ماءٍ رمادي ساكنٍ تخشى الريح أن تحرّك مياهه! يا لجمال الطبيعة الساحر! انتابني شعور بالسكينة لم أعهده من قبل وأنا أشاهد ضوء الشمس يزداد سطوعا كل دقيقة، مُنيرا قمم الجبال في الأفق. تلك المشاهد الخلابة أسرَتني.. سيطرت على كل حواسي لدرجة أنني لم ألحظ وقوف شيرلوك هولمز بجانبي إلى أن ألقى هذه الأبيات:

ولذا ما زلت محبا للمروج والغابات،

وللجبال، ولكل ما نراه من هذه الأرض الخضراء*.

---

* من قصيدة «أبيات شعرية كتبت أثناء جولة على بعد أميال من دير تنترن في ١٣ يوليو عام ١٧٩٨ عند العودة لزيارة شواطئ نهر الوادي» للشاعر الرومانتيكي الإنجليزي الشهير وليام وردزورث. استعنت هنا بترجمة د.عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد من كتاب «مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي: النصوص الأساسية وبعض الدراسات التاريخية والنقدية» الصادر في أكتوبر عام ١٩٧٩ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت.

ثم قال هولمز: «هنا وُلد وردزورث.. في مدينة التلال والبحيرات».

وقفنا نشاهد المناظر الطبيعية من نافذة الممر في صمتٍ، بينما يتأرجح القطار أثناء صعوده ممرا جبليا وعرا. نظر هولمز في ساعة يده، ثم قطع الصمت قائلا: «سنصل إلى بينريث في أقل من ساعة. دعنا نذهب إلى مطعم القطار لنتناول فطورنا، فلا أعلم متى ستتسنى لنا فرصة تناول الطعام ثانيةً».

تناولنا وجبة فطور متكاملة: شرائح لحم خنزير، وبيض مسلوق، وخبز محمص، وقهوة. وبعدما انتهينا، أخرج هولمز خريطة من جيبه وبسطها على طاولة الطعام، ثم قال: «كما ترى يا واطسون، تقع مدينة بينريث في أقصى شمال أولسووتر. وهنا، الطريق الرئيسي على الجهة الغربية من البحيرة، أما جزيرة جريب فهي أقرب للجهة الشرقية، ولذا، فعلينا أن نتجه شرق البحيرة كي نصل في وقتٍ أقصر».

أشار هولمز إلى خطٍ رفيع متعرج يمتد بمحاذاة بقعة مياه زرقاء، ثم أضاف: «سنواجه صعوبة أثناء السير في هذا الطريق؛ أظن أنه مليء بالتعرجات والمسارات القذرة. ولكن هذا سيكون في صالحنا نوعا ما؛ فسيصعب على من يراقبنا تحديد موقعنا.

دقّقت النظر في الخريطة لأتعرّف على تلك المنطقة. بدت بحيرة أولسووتر كجوربٍ طويلٍ مهترئ، وجزيرة جريب ليست إلا نقطة سوداء تقع في الجنوب، عند المساحة الأكثر اتساعا من البحيرة.

«ثمّة نتوء صغير في الجهة الأخرى من الجزيرة». قلت وأنا أشير بسِكّيني إلى موضعٍ في الخريطة.

«نعم، على الأرجح هذا رصيف مرفأ صغير به بعض الزوارق التي تستخدم للوصول للجزيرة».

ابتسمت وقلت: «أرجو أن يكون ما تقوله صحيحا، وإلا سنقع حتما في مأزق».

بادلني هولمز الابتسامة وقال: «كفاك هراءً.. ألا تستطيع السباحة يا واطسون؟».

بينريث هي العاصمة القديمة لمقاطعة كمبرلاند التي أنشئت في القرن التاسع الميلادي..

بعد مغادرتنا للمحطة، ظللنا نتأمل المباني الأثرية من حولنا، التي يعود بعضها إلى القرن السادس عشر. السماء زرقاء صافية إلا من بعض السحب الرمادية المتناثرة هنا وهناك، والرياح شديدة تكاد تشق معطفيْنا. مضى هولمز بثقةٍ وثبات وكأنه يعلم وجهتنا تمام العلم، مع أنه غريب عن هذه المدينة.

«يجب أن نعثر على إسطبل، وأظن أن ثمّة واحدا في السوق». قال هولمز.

«كيف تعلم أننا نمضي في الطريق الصحيح؟».

«هذا سهل للغاية يا صديقي. لقد سألت حارس القطار عن الاتجاهات بينما كنت تدفع حساب الفطور».

لم يمضِ من الوقت إلا القليل حتى وصلنا إلى السوق. كانت الساعة الثامنة وبضع دقائق صباحا، رأينا الباعة يفتحون أبواب محالهم، ويزيلون الأغطية عن بضائعهم ويحملونها إلى الخارج. مر بعض الموظفين والعاملين من هذا الميدان الصغير، متجهين إلى أشغالهم. أخذت أنا وهولمز جولة حول السوق، ولكننا لم نعثر على أي إسطبل.

«علينا أن نسأل أحدا». قال هولمز.

قادني إلى أحد أركان الميدان، حيث محل صغير بابه مفتوح، معلق فوقه لافتة مكتوب عليها بحروف سوداء: «جوزيف كوبر، لأعمال الحِدادة».

«من المؤكد أن الحدّاد يعرف أين نجد إسطبلا قريبا من هنا».

كان هولمز محقا.

دلفنا إلى الداخل، فوجدنا جوزيف كوبر، وهو رجل مفتول العضلات ذقنه تميل إلى الحُمرة تتماشى مع حُمرة وجهه، يمسك حدوة حصان متوهجة بكمّاشتين. عندما سألناه، وضع ما كان يمسك به جانبا وأجاب قائلا: «اذهبا إلى فلينتي أوتول، إنه أفضل سائس خيل هنا. لديه إسطبل صغير بالقرب من ستوكسبريدج، على مسافة أقل من ميل، وأعتقد أن رجلين في لياقتكما يستطيعان الوصول هناك في أقل من ساعة. وعندما تصلان، أخبراه أن جو كوبر هو من بعثكما، وسيستأجر لكما جواديْن جيديْن».

وبعدما شرح لنا الحدّاد مكان الإسطبل بالتفصيل، شكرناه وخرجنا بسرعة.

غادرنا المدينة في وقتٍ قصير. مشينا في مساراتٍ بدائية لم تتأثر بتغيرات وحداثة عصرنا. كان جو كوبر محقا، ففي غضون أربعين دقيقة كنا قد وصلنا إلى إسطبل فلينتي أوتول.

كان رجلا أيرلنديا قصيرا، حسن الملامح، له عينان زرقاوان لامعتان. أعطانا جوادين حالتهما جيدة، وفي غضون نصف ساعة كنا نمشي بمحاذاة البحيرة على الجهة الشرقية.

***

في ذلك الصباح، كانت ثمّة جنازة قائمة داخل كنيسة صغيرة عند أطراف لندن. لم يكن عدد الحاضرين كبيرا، لكن تواجد الشرطة كان ملحوظا. وقف على مسافةٍ من القبر رقيب شرطة لا يرتدي الزي الرسمي، وإلى جانبه وقف المفتش عاموس هاردكاسل.

وبينما كان القبر يستقبل نزول نعش السير أليستير آندروز، رتّل القِس الشاب: «من يؤمن بي فله حياة أبدية»*.

انحنت كاتريونا آندروز بجسدها إلى حافة القبر حتى كاد وجهها، المُغطى بوشاحٍ غامق اللون، يلامس التراب. همست إلى أبيها ببعض الكلمات الأخيرة، ثم قذفت حفنة ترابٍ على النعش وصاحت صيحة اليائسين. صوت عويلها كان أشبه بعويل حيوانٍ بريٍ يلفظ أنفاسه الأخيرة، وسماعه حقا يفطر القلوب. ظل الصوت يتردد بين جدران الكنيسة حتى كاد يشقها. وقف الحاضرون في أسى شديد. حتى رجال الشرطة تأثروا ببكائها وأحنوا رؤوسهم محاولين إبداء تعاطفهم.

وفجأة، وقفت الشابة، وبسرعة كلب صيدٍ، جرَت في طريق بوابة الخروج، متجنبةً الاصطدام بالأضرحة بمهارةٍ فائقة. سرعة انطلاقها بعيدا تسببت في صدمة لهاردكاسل ومرافقه الرقيب، لدرجة أنهما –من فرط الذهول– وقفا مكانهما كصنميْن للحظاتٍ، يحاولان إدراك ما يجري.

جذب هاردكاسل ذراع الرقيب وصاح: «هيا يا بورتر! يستحيل أن نتركها تهرب!». ثم هرع في اتجاه كاتريونا. تبعه الرقيب، قافزا فوق القبر الذي ما زال مفتوحا حتى كاد يصطدم بالقسيس المذهول.

لكن الفتاة كانت قد فرّت بالفعل ولم يعُد لها أي أثر..

***

---

* إنجيل يوحنا ٦: ٤٧

حتما لو لم تكن رحلتنا هذه لأمرٍ هامٍ، لكنا استمتعنا لوقتٍ أطول بجمال أولسووتر الساحر والمُريح للأعصاب. ورغم هذا، فلقد شعرت بالسعادة لركوبي جوادا مرة أخرى، فإنني لم أمتطِ واحدا منذ عودتي من أفغانستان. أحسست براحةٍ فوق ذلك السرج، فالمرء يرى العالم من منظورٍ مختلفٍ وفريدٍ وهو جالس فوق ظهر حصان.

شعوري بالخوف تجاه ما نحن مقبلان عليه سلبني سعادتي. قد يكون منظر المياه التي تعكس أشعة الشمس البرّاقة سارا للعين، لكن هذا لم يكبح بداخلي ذلك الشعور المتزايد بعدم الارتياح لما هو آتٍ. وحتى شيرلوك هولمز لم يكن متأكدا مما سنواجهه عند وصولنا وجهتنا. هنا يعجز جمال الطبيعة عن إخراجك من حالة الشك، والخوف من المجهول.

«يبدو أنك لن تسبح اليوم». قال هولمز قاطعا شرودي، ثم أشار إلى مرفأ خشبي صغير يمتد إلى داخل البحيرة قليلا، وعلى الشاطئ بجانب المبنى المتداعي كان ثمّة ثلاثة زوارق خضراء. نظرت نحو الجهة الأخرى من البحيرة، فوجدت جزيرة جريب، بدت في الأفق كحوريةٍ سوداء تطفو على سطح المياه المتلألئة.

***

كان فلينتي أوتول يغسل يده عندما شَعر أن ثمّة من يراقبه.

رأى ظل أحدهم يقترب منه.. التفت فوجد نفسه يواجه رجلا غريبا، طويل القامة، شعره أشقر طويل. لم يرتعد جسد فلينتي لمظهر ذلك الرجل الغريب.. بل لأن كان ثمّة مسدس مصوب نحو قلبه، وينتظر الزناد إشارة من إصبع الغريب.

-١٤-

جزيرة جريب

وقفنا لبعض اللحظات نحدق في الجزيرة الصغيرة. كانت أشبه بظلٍ داكنٍ لحيوانٍ بحريّ ضخم يطفو على سطح الماء.

لم تتضح لنا ملامح الجزيرة من موقعنا إطلاقا. بدت وكأنها مهجورة. فلم أرَ أي مدخنة تنفث دخانا أو أي علامة تدل على أنها مسكونة. خيّمت شمس الربيع على الجزيرة، لكنها لم تكشف لنا أسرارها الخبيثة.

ترجّلت أنا وهولمز، وربطنا جواديْنا بقائميْن من قوائم المرفأ، ثم شرعنا في دفعِ زورقٍ إلى البحيرة. وبمجرد أن طفا الجزء الخلفي من الزورق على سطح الماء، قفز هولمز على متنه سريعا وأمسك بالمجدافين، بينما قمت أنا برَفع مقدمة الزورق التي كانت في مواجهة الشاطئ ودفعته ثم صعدت عليه.

في البدء واجه هولمز بعض الصعوبة أثناء التجديف، لكنه استطاع بعد ذلك تحريك القارب في اتجاه الجزيرة بسلاسةٍ أكبر.

«أخشى أنني فقدت مهارتي؛ فإنني لم أمارس التجديف منذ أيام دراستي بالجامعة». قال هولمز بصوتٍ عالٍ طغى على صوت الرياح، وصوت صفعِ المجدافين لسطح الماء.

استمرّ هولمز في التجديف حتى صار القارب يتحرّك بسرعةٍ ثابتة. إذا رأى أحدهم هولمز، سيظن أنه أحد رجال المدينة يستمتع بوقته في البحيرة. لم يقم هولمز بأي تصرفٍ يثير الشك.

في البحيرة، أخذت أشعة الشمس تتلاشى شيئا فشيئا، وتبدد معها الدفء الذي استمتعنا به أثناء مضينا على الشاطئ. رياح حادة كأسنة الرماح بدأت تطعن مياه البحيرة، وتشق ما بين ثنايا ثيابنا. أحكمت غلق أزرار معطفي، ولكن لم يحدث ذلك أي تغيير. ارتجف جسدي مثلما ارتجف قاربنا المسكين.

كانت تلك الجزيرة الصغيرة تبعد عن الشاطئ قرابة نصف ميل، وقد قطع هولمز مسافة كبيرة بالفعل. وبعدما اقتربنا أكثر، تراءى لي منزل «جريب» خلف حاجز من الأشجار، بدا المبنى غريبا؛ مستدير الشكل، مصمما على

الطراز القوطيّ، نوافذه الزجاجية السوداء، مثل أعينٍ ضخمة، تتبادل النظرات معنا.

«ما هي خطتنا؟». قلت لصديقي المنشغل بالتجديف.

«لن تجدي الحيلة نفعا، فالأمر جادٌ للغاية. وتذكر أن فيليبس، السكرتير الخاص لفافيرشام، ليس مجرما. أعتقد أنه ليس له علاقة بجريمة سرقة البردية أو أيٍّ من جرائم القتل. إنه فقط رجل مُضلل ينفذ تعليمات فافيرشام الذي كان يُكِن له كل حب واحترام. علينا أن نواجهه بالحقيقة مهما كانت مُرّة، وعلينا أن نخبره بأنه الطُّعم الذي سنصطاد به الحوت».

«آمل ألا يكون فيليبس قد ارتكب فعلا شنيعا بجثة فافيرشام».

«سيكون هذا أمرا مؤسفا. ولكن مهما يكن ما فعله، فهو بدافع الإخلاص لا البطش. ضع في اعتبارك يا واطسون أن حالته العقلية قد تكون مضطربة، ولهذا فقد تحتاج إلى مسدسك إذا جاء رد فعله عنيفا».

وضعت يدي في جيبي وتحسست مسدسي القديم. ملمس المعدن البارد جعلني أشعر بالطمأنينة.

اقتربنا من مرفأ جزيرة جريب، الذي يشبه تماما المرفأ الآخر. ترك هولمز القارب ينزلق إلى الساحل حتى انغرز في الرمال، ثم عقد وثاقه بأحد عمدان المرفأ وقفز إلى الأرض.

يبعد منزل جريب عن الساحل بحوالي مائة ياردة، وثمة حديقة مهجورة بها أشجار طويلة متشابكة تجعل من رؤية المنزل أمرا مستحيلا. سحر الطبيعة الطاغي على الجزيرة جعل المنزل يبدو وكأنه قد بُنِي في المكان الخاطئ، وكأن الطبيعة تريد الانفراد بالجزيرة. تذكرت كنيسة صغيرة في لندن عندما دققت النظر في المبنى المزخرف. لم يبدُ كأي منزلٍ ريفيّ تقليدي.

لم ينطق أحدنا بكلمة بينما كنا نمشي في طريقٍ مرصوف بالحصى. وجدنا أنفسنا في نهايته نقف أمام باب من خشب البلوط. حاول هولمز فتح الباب لكنه كان مغلقا.

«يبدو أننا سندخل المنزل كزائريْن عاديين». قال هولمز ثم قرع الجرس الكبير بقوة. سمعنا رنينا يدوي في أعماق المنزل، لكن لم يكن ثمّة إجابة. قرع هولمز الجرس مجددا عدة مرات، ثم أخذ يطرق الباب بيده.

انتظرنا لبعض اللحظات في صمت، لم نسمع أي صوتٍ سوى حفيف الأشجار وتغريد الطيور.

«ربما ليس هناك أحد بالداخل». أخبرت هولمز.

«لا يا واطسون، أنا متأكد أن ثمة أحدا في المنزل. آمل فقط أن يسمعنا ذلك الأحمق ويسمح لنا بالدخول». قال هولمز، ثم قرع الجرس ثانية بينما طرقت أنا الباب بقبضتي. وأخيرا سمعنا صوتا خفيفا داخل المنزل، أشبه بصوتِ خطى أحدهم. بدأ الصوت يعلو شيئا فشيئا، كان ثمة من يقترب من الباب ثم وقف. انتظرنا لوهلةٍ أخرى في صمت، وسمعنا بعدها صوت مفتاح ثقيلٍ يدور في قفل.

تحسست مسدسي تلقائيا.

انفتح الباب ببطءٍ. وجدنا شابا أسود الشعر يقف أمامنا، يمسك شمعدانا بيدٍ ترتجف. تعرّفت على ملامحه من الصورة التي كنت قد رأيتها في منزل إلمز.. إنه الرجل الذي جئنا إليه: جون فيليبس، السكرتير الخاص للسير جورج فافيرشام. صدمني تغيّر ملامحه الشابة؛ فكان ثمّة بعض خصلات شعر رمادية تتدلى على وجهه الأبيض الشاحب لتصافح لحيته الكثيفة. أمّا عيناه فقد انطفأ بريقهما، وساد حولهما السواد دالًّا على الأرق وقلة النوم. ظل يحدق في وجهينا كمَن رأى شبحا أمامه فجأة، وفتح فمه فسَال لعابه على شفتيه كوحشٍ جائع. أستطيع القول أن هيئة جون فيليبس، بظهره المنحني ومشيه البطيء، هي هيئة عجوزٍ طاعنٍ في السن، لا هيئة شاب في مقتبل العمر.

بقيَ فيليبس كما هو، يحدق فينا لبعضِ الوقت، وشفتاه تتحركان في صمتٍ وكأنه سينطق بشيء ما ولكنه نسيه أو عجز عن صياغته.

بادره هولمز بالحديث قائلا: «سيد فيليبس، أنا شيرلوك هولمز، وهذا مساعدي الدكتور واطسون. لقد جئنا هنا لمساعدتك».

«لا!». صرخ فيليبس بقوة، جسده يرتجف، وعيناه تكادان تنفطران من فرط الانفعال.

أردف قائلا: «اذهبا! أنتما تعطلاني عن عملٍ هام!». ثم حاول إغلاق الباب في وجهينا. لكن هولمز تقدّم ومنعه. أمسك هولمز بمقبض الباب ودفعه بقوة، فلم يُتِح فرصة لفيليبس سوى أن يتراجع للخلف.

قال هولمز بنبرة الآمر: «لديك حلان فقط: إما أن تتركنا نساعدك، أو سنخبر السلطات أن ثمّة مسروقات مخبأة هنا في هذا المنزل، وأنك تمارس على الموتى شعائر تتنافى مع تعاليم المسيحية».

انفتح فم فيليبس عن آخره، وتراجع خطواتٍ للوراء في ظلام الردهة.

«يا إلهي!». صاح فيليبس. انغلقت عيناه، وترنح جسده، وجال بذراعه في الهواء محاولا الإمساك بأي شيء يتكئ عليه ولم يجد، ففقد توازنه واصطدم جسده بالأرض. تدحرج الشمعدان من يده وتوهّج في الظلمة.

أسرعت نحوه وجثوت على ركبتيّ بجانبه، ثم أمسكت رسغه لأجسّ النبض، فوجدته ضعيفا وبطيئا. قدِم هولمز ليقف بجانبي، فقلت له: «إنه ما زال حيّا، ولكنه مُتعب للغاية».

«هل هذه مضاعفات الإرهاق أم هناك أعراض أخرى؟». سألني هولمز وهو يجثو على ركبتيه ويمسك برأس الشاب. فتح جفنيه الرخويْن فلم يُرَ منهما سوى حدقتين متجمدتين تتشعب من حولهما عروق حمراء أرفع من الشعر.

ساعدني هولمز على خلع معطف فيليبس. فحصت ذراعيه لأرى إذا كان ثمّة أي آثار حقنٍ. تساءلت إذا كانت حالة الإرهاق هذه بسبب المخدرات، لكن وجدت جلد ذراعه ناعما وخاليا من أي علامات.

«هذا نوع من أنواع الإرهاق، نتج عن توتر عصبي. ملامحه الشاحبة وتصرفاته الغريبة تنم عن أنه رجل ضعيف، جسمانيا وذهنيا. أعتقد أننا إذا أدخلناه غرفة دافئة وأعطيناه شرابا منعشا –ككأس براندي مثلا– سيستعيد وعيه».

وقف هولمز على قدميه ثانية، وهز رأسه قائلا: «لا، اتركه حيث هو.. إنها فرصة ذهبية لاستكشاف المنزل دون أن يعوقنا أحد».

دائما ما يضع هولمز التحقيق على رأس أولوياته. لن يهمه بالطبع الاطمئنان على مريضٍ بقدر ما يهمه إنجاز التحقيق، حتى وإن كان هذا المريض شابا مُضللا بائساً. ورغم اختلافي معه، فقد رأيت أنه محق هذه المرة؛ وهذا لأن فيليبس لم يكن في خطرٍ حقيقي، ولأن إرهاقه الشديد سيسمح لنا باستكشاف المنزل. لمحتُ في ضوء المدخل أريكة في نهاية الصالة الرئيسية. اقترحت على هولمز أن ننقل فيليبس هناك حتى يستريح. وافق وحملناه إلى الأريكة.

أمسك هولمز بالشمعدان وأشعله بعدما انطفأ، ثم قال: «من الواضح أن ليس هناك مصابيح غاز أو كهرباء في هذه الجزيرة، ولذا فإن هذا الشمعدان هو مصدر الإضاءة الوحيد الذي سنعتمد عليه».

بدأنا جولتنا داخل المنزل الدائري الغريب. كانت الشمس تنير كل ما هو خارج المنزل، ولكننا بالداخل كنا نمضي في عتمة موحشة، إلا من بعض أشعة ضوءٍ خافتة تسللت من ثقوبٍ بالنوافذ المطلية. وجدت في ركنٍ من الأركان شمعدانا آخر فأشعلته وحملته ليُنير طريقنا.

اكتشفنا أن جميع الغرف بالطابق الأرضي، وأن السلم يؤدي فقط إلى معرضٍ تحت قبة المنزل مباشرة. كان ثمّة مطبخ، وحجرة طعام، وغرفة جلوسٍ، وثلاث غرف نوم، كلها تتسم بالبساطة، ولم يشكل أيها أهمية في التحقيق. عثرنا بعدئذٍ على مكتب السير جورج، وجدنا فيه العديد من التحف والآثار المصرية القديمة من بينها ناووس مطلي بالذهب البرّاق، موضوع بشكل رأسي وملتصق بالحائط. تحمّس هولمز لمّا رآه، فأخرج عدسته من جيبه وبات يفحصه.

«أتعتقد أن بداخله جثة فافيرشام؟».

«لا أظن ذلك يا واطسون. لقد صُنِع هذا الناووس في بداية العصر الڤيكتوري».

«هذا لا يُعقل!».

«أجل، إنه مجرد نسخة، كالنواويس الموجودة في المعارض التي لا يميّز العامة بينها وبين الأصلية.. والآن، احمل هذا الشمعدان».

فعلت كما أمرني، بينما أزال هو غطاء الناووس الذي انفتح بسلاسة.

«مفصلات هذا الناووس حديثة.. أكثر عملية بالطبع».

عندما أزيل الغطاء، رأيت شيئا سبّب لي دهشة كبيرة. لم يكن هناك قاعدة للناووس، بل كان ثمّة باب سري. اقتربت بالشمعدان منه، فكشف الضوء عن درج يؤدي للأسفل.

«قبو سري!». أخبرت هولمز متعجبا.

«إنه ليس قبوا بل قبر.. هذا الدرج يؤدي إلى مقبرة فافيرشام السرية».

ارتعد جسدي.

«اتبعني. دعنا نتأكد من صحة استنتاجي».

أخذ هولمز مني الشمعدان، وقادني إلى الباب السري. نزلنا درجات السلم الحجري الحلزوني. وجدنا مصابيح زيت معلقة على الجدران على ارتفاع. أحصيت درجات السلم، مثلما يفعل هولمز دائما، فوجدتها ثماني وعشرين درجة. لم أستطع كبح ذلك الشعور بأننا نغادر عالم الواقع، وندخل عالما غريبا، مليئا بالمخاطر والأسحار.

وجدنا أنفسنا في غرفةٍ سقفها منخفض، تضيئها أربعة مشاعل طويلة نيرانها تتذبذب، وترقص ظلالٌ مخيفة على جدرانها. وكما استنتج هولمز، كانت الغرفة نموذجا طبق الأصل من مقبرة مصرية قديمة؛ على الجدران، كانت ثمّة رسومات ونقوش تنتمي لتلك الحضارة العتيقة، وفي نهاية الغرفة مذبح صغير به أوانٍ من خزف مملوءة بسوائل ملونة، متراصة في شكلٍ دائري حول صندوق ذهبي صغير. وخلف المذبح كان ثمّة بساط حائط أزرقٌ عريض يُغطي الجدار الخلفي بالكامل، مرسوم عليه بعض الرسومات باللون الأصفر، لفت نظري منها طائرٌ برأس إنسان يحلق فوق مومياء.

قال هولمز: «لقد أفنى السير جورج فافيرشام حياته في دراسة تاريخ المصريين القدماء، ومن فرط ولعِه بحضارتهم، أراد أن يُدفَن على طريقتهم. أمعِن النظر في هذه الرسومات.. هذا الإله، ذو رأس ابن آوى، هو الإله أنوبيس، وهذا أوزوريس، إله الموتى. أما هذا الإله، ذو رأس أبو منجل، فهو الإله تحوت. جميعهم يلعبون دورا مهما في المرحلة الانتقالية، ما بين الموت والحياة».

لم أستطع التركيز في ما قاله هولمز، وهذا لأن كامل انتباهي انصبّ على النعش الكبير الموضوع في منتصف الغرفة. النعش مصنوع من حجر، على جانبيه نقوش لحيوانات وطيور وأكوامٌ من القمح، ولم يكن له غطاء، وبداخله جثة رجل عارٍ، بدا من بعيد وكأنه حيوان ميت ملفوف بورق شجر أخضر، ولكنني عندماً اقتربت أكثر وجدت أن ما ظننته ورق شجر ما هو إلا بلور أخضر لامع.

رفع هولمز شمعدانه فوق الجثة ثم قال بلطفٍ: «ها هو السير جورج فافيرشام».

نيران المشاعل ظلت تتذبذب كما هي، ولكن الظلال التي كانت تتراقص على الجدران قفزت على الجثة، وعادت ترقص، حتى بدا وكأن جسد السير جورج فافيرشام يتحرّك.. كأنه نائم يتقلب في فراشه وسيستيقظ من نومه العميق في أي لحظة!

ظننته سيُبعث حقا، فارتجف جسدي.

قال هولمز متأثرا: «لقد حُنَّط جسده.. وُضِع في ملح النطرون كي يُنقيه ويحفظه، و...». أشار هولمز إلى ندوب بارزة على بطن الجثة وأكمل: «استُخرِجت أمعاؤه.. وأخيرا، من ذلك التجويف في رأسه، يُزال المخ على أكثر من مرحلة بشعة».

«يا إلهي! هذا مثير للاشمئزاز!».

«يبدو من حالة الجمجمة أن هذه العملية لم تكتمل حتى الآن».

«ولكن كيف لأحدٍ أن يربط فعلا وحشيّا كهذا بفكرة التغلب على الموت؟! كيف لرجلٍ أن يعيش بعدما قطع جسده واستخرجت أحشاؤه؟ هذا غير منطقي على الإطلاق!».

«وهل ثمّة علاقة بين السحر والمنطق يا واطسون؟». رد هولمز، ثم أكمل قائلا: «لقد أخفق سِتاف في إعادة الموتى إلى الحياة، ولكنني أعتقد أنه كان يؤمن بقدرته على حفظ أرواحهم. تتمثل الروح، التي أطلقوا عليها اسم (با)، في ذلك الطائر ذي الرأس البشري المرسوم على بساط الحائط الكبير. وبعدما تحفظ الروح، يمكنها العثور على شكلٍ آخر من أشكال الوجود.. ربما تنتقل لجسدٍ آخر، ولكي يتم هذا الانتقال، لاً بد من إجراء عملية التحنيط التقليدية».

«وهل قام فيليبس بكل هذا؟».

«أجل، لقد قمت بكل هذا».

التفتنا في نفس اللحظة لنرى جون فيليبس واقفا بجانب الدرج. لم يزل وجهه شاحبا ويبدو عليه الإعياء الشديد. مضى نحونا بخطواتٍ بطيئة وجسدٍ يترنّح. اتكأ بيديه على حافة النعش ونظر إلى الجثة ثم قال: «توسلت إليه أن يُفكر بعقلانية.. توسلت إليه أن يعترف بأن سِتاف كان رجلا مخادعا، أخفق في التغلب على الموت فألّف خرافة لا تنتمي للواقع بصلة. أخبرته أن

لفافة الموتى هراء لا معنى له، وإنها مجرد حيلة حاول بها سِتاف إخفاء فشله».

هز رأسه ثم أكمل: «لكن السير جورج لم يستمع إليّ. كان يؤمن أن جسد الإنسان الفاني لا يُشكل أهمية إذا حُفِظت روحه، ثم بعد ذلك تنتقل الروح إلى جسدٍ آخر، ويُبعَث الميت إلى الحياة من جديد مثلما يستيقظ النائم من سباته».

انهمرت دموعه على خديه وارتجف جسده من فرط تأثره. لم ينبس أحدنا بكلمة. تركناه يتخلص من ذلك العبء الذي أثقل روحه لمدة طويلة.

«أجبرني أن أعده بتنفيذ ما ورد في لفافة سِتاف اللعينة بالحرف. لم يكن بوسعي أن أعترض. كنت أكن له كل حبٍ واحترام، فكان يستحيل أن أخون ثقته وأخلف وعدي، حتى وإن تطلب الأمر أن أقوم بكل تلك الأفعال الشنيعة. لكن... على الأقل لقد مات آملا».

تعاطفت مع ذلك الشاب الذي دفعه إخلاصه وحبه الشديد لأستاذه المضلل أن يمارس أبشع أنواع التدنيس على جثته. تنفيذه لأوامر السير جورج يتطلب شجاعة لا مثيل لها، ولا شك أن قلب هذا الشاب محطم الآن.

«إنني.. إنني سعيد بمجيئكما إلى هنا؛ فوجودكما سيمنعني من استكمال هذه المراسم الوحشية». ارتسمت على شفتيه المرتعشتين ابتسامة خافتة لم تدُم طويلا، وبكم معطفه مسح خيط لعابٍ رفيع سال من فمه إلى ذقنه.

قال فيليبس في يأسٍ: «افعلا بي ما يحلو لكما».

قال هولمز بحماسٍ: «أخبرنا أين لفافة الموتى».

بخطواتٍ بطيئة وجسد لم يزل يترنّح، مضى فيليبس إلى المذبح في نهاية الغرفة، وأخرج من الصندوق الذهبي الصغير بردية مهترئة لونها أصفر باهت. مد إلينا يده المرتعشة وهو يبكي ويقول: «ها هي لفافة الموتى أيها السيدان.. سبب اللعنة التي أصابتنا».

«رائع.. لقد جئت في الوقت المناسب». صاح صوت من خلفنا.

التفتُّ عند سماع ذلك الصوت المألوف. وجدت سيباستيان ملموث واقفا أمام الدرج حاملا مسدسه، يرمقنا بنظراتٍ خبيثة ويبتسم.

-١٥-

المطاردة

تقدّم ملموث نحونا، وتبعه مساعده توبياس فيلشو الذي ظهر فجأة من بين الظلال التي تغطي منطقة الدرج. كان فيلشو يبتسم أيضا في تعالٍ، ويحمل حقيبة جلدية صغيرة في يدٍ، وفي اليد الأخرى مسدس.

«يا لدفء هذا الجو». قال ملموث ساخرا. ملامحه البريئة عاجزة عن إخفاء نواياه الخبيثة.

صمَت برهة ثم أردف قائلا: «تنتهي الرحلات بلقاء الأحبة، أليس كذلك سيد هولمز؟ يبدو أنك لم تتفاجأ برؤيتي».

«بالطبع لم أتفاجأ، بل إنني انتظرتك لوقتٍ طويل». رد هولمز.

اتسع ثغر ملموث بابتسامةٍ، وقال: «أوكد لك أننا تمنينا القدوم مبكرا، ولكن كما تعلم، لا يمكن لأحد توقع مواعيد وصول القطارات الخاصة. وعلى الرغم من هذا، فأظن أننا وصلنا في توقيتٍ مثاليّ». اختفت الابتسامة من على وجه ملموث وتبدّلت ملامحه. نظر إلى فيليبس وقال: «أرى أنك تحمل في يدك ما جئنا لكي نحصل عليه، سيد فيليبس. والآن، من فضلك أعطني لفافة الموتى».

تجمَّد فيليبس حيث هو، وظل مصوّبا نظره نحو الدخيليْن، ثم ما لبث أن سألهما بهدوءٍ قائلا: «من تكونان؟».

لمعت عينا ملموث بخبثٍ، وقال: «أخشى يا سيدي أننا لا نملك وقتا نضيعه في مثل هذه الأسئلة. والآن أعطني اللفافة».

ظل فيليبس ثابتا في مكانه. لم يكن ذلك تحديا لملموث بل لأن الذهول قد سيطر عليه وأعاق تفكيره.

«اللفافة». ردد عدونا بنبرةٍ حادة تنم عن انزعاجه.

«لماذا؟». سأله فيليبس.

«لأن في يدي مسدسا». رد ملموث ثم أطلق النار على فيليبس. مرّت الرصاصة فوق رأسه بسنتيمترات قليلة، دويها هز أركان الغرفة.

أسرع فيلشو وانتزع اللفافة من قبضة يد فيليبس الذي وقف مذهولا، ووضعها في حقيبته، ثم دفع فيليبس فطرحه أرضا وضربه بخِسّةٍ بأخمص مسدسه. اصطدم ظهر الشاب المسكين بالمذبح وصرخ من شدة الألم، ولكنه لحسن الحظ لم يفقد وعيه.

«أيها الملعون!». صرخت وأنا على وشك أن أعدو نحو فيليبس لأحاول مساعدته، لكن ملموث صاح قائلا: «إياك أن تتحرّك!».

شد أجزاء مسدسه وصوّبه نحوي، ثم أردف: «لا تكن أحمق يا دكتور واطسون. هذا ليس الوقت المناسب لكي تلعب دور البطل».

«أنا أحمق! بل أنت الأحمق يا ملموث! أنت من قتلت وآذيت أناسا أبرياء فقط لأنك أردت الحصول على لفافة بالية ليس لها فائدة».

«أوكد لك أن هذه اللفافة البالية لا تقدّر بثمن؛ إنها تفتح لنا بوابة خفية تؤدي إلى حياةٍ أبدية».

«يا لك من أحمق! أتصدق ما تقوله! انظر إلى السير جورج فافيرشام». أشرت نحو الجثة التي بداخل النعش الحجري ثم استكملت قائلا: «انظر إليه! جثة هامدة شوِّهت أثناء تنفيذ التعليمات التي وردَت في لفافة سِتاف».

اتضح أن ملموث لم يلحظ الجثة عند دخوله الغرفة، لأنه حينما نظر إليها شَحُب وجهه. بدا التوتر أيضا على فيلشو الذي تراجع للخلف من هول المنظر.

«لقد استخرجَت أمعاؤه، فكيف تدِبُّ فيه الحياة ثانية وقد انتزعت منه بعض أعضائه الحيوية؟ هذه الجثة لن تبعث ولن تشرق عليها شمس حياة جديدة».

لبث ملموث مليا ثم قال بعدما استعاد هدوءه: «بالطبع لا، فعملية التحنيط لم تكتمل. وبالتالي، فإن الـ(با) لم تنقذ، وقد فات الأوان على إنقاذها. لكن هذا لن يمنعنا من الاستفادة بأسرار اللفافة».

«إن واطسون محق. أمعن النظر في هذه الجثة المشوّهة. هل تمتلك من الجرأة والشجاعة ما يكفي للمجازفة؟ هل أنت واثق مما ورد في هذه

اللفافة لدرجة أنك ستخضع بإرادتك لأبشع أنواع التعذيب كي تبحث عما تخاله حقيقيا وهو غير مؤكّد؟».

نظر ملموث إلى الجثة مرة أخرى. فتنه مظهرها، وأخافه في الوقت ذاته. لم يجد ردا على سخرية هولمز فلزم الصمت.

«إذا كنت تعتقد حقا أن هذه القصاصة الصفراء ستتوِّجك بتاج الخلود، فأنت إذن لست أحمق فحسب، بل إنك لمجنون».

«نحن البشر لا نملك أن نحكم مَن عاقل ومَن مجنون؛ فإننا ما زلنا نحكم بالمقاييس التافهة ذاتها، والتي، بعد ألف سنةٍ من الآن، قد تثبت عكس ما حكمنا به. لذا فكل المقاييس مختلة ولا تصِح. إن العبقرية الحقيقية، سيد هولمز، جنون. وهذا هو المسار الذي أتبعه».

ثم أكمل مستطردا: «إنني أومن أن الموت ليس النهاية، بل إنه ينقلنا فقط إلى مكانٍ أفضل. وأنا أسعى وراء تلك الحقيقة التي عرفها الحكماء القدامى وغفل عنها الناس في عصرنا. وعلى الرغم من هذا، سيد هولمز، فإنني واقعيّ وعقلانيّ بما فيه الكفاية لأدرك أن المخاطرة دون جدوى ما هي إلا حماقة. والآن دعنا نقول أننا سنخضِع آخرين للتجربة قبل أن نخوضها نحن. فكر في الأمر.. سيحظى هؤلاء قبلَنا بفرصة ذهبية للمرور عبر الباب السحري إلى تلك الحياة الرائعة بعد الموت».

«تريد أن ترتكب جرائم قتل أخرى إذن».

«إنني أسدي لهؤلاء خدمة كبيرة بمنحهم حياة جديدة، سيد هولمز، وهذا ليس قتلا».

مضى فيلشو إلى صديقه وجذبه من كمِّه وهو يقول: «هيا بنا يا عزيزي. لا تضيع وقتك مع هؤلاء الحثالة؛ لقد حصلنا على ما جئنا إليه ولم يعد هناك داعٍ للبقاء لأكثر من ذلك».

«لطالما كنت حكيما، عزيزي توبياس، ولم تزل كذلك. لا أدري ماذا كنت سأفعل بدونك». طبع ملموث قبلة حانية على جبين فيلشو، ثم أكمل: «حسنا أيها السادة، لقد حان وقت رحيلنا. رجاءً لا تحاولوا اللحاق بنا لأنكم لن تستطيعوا؛ فلقد حطمنا جميع الزوارق عدا واحدا سنهرب به الآن. هيا اتبعني يا توبياس».

مضى الاثنان نحو الدرج، ولكن قبل أن يصعدا، التفت ملموث إلينا، ونظر إلى هولمز بعينيه اللامعتين، ثم خاطبه بنبرةٍ هادئة أقرب للهمس قائلا: «لقد كنت قريبا جدا من مرادك، سيد هولمز. لكن أخشى أنك لم تقترب بالشكل الكافي».

لوّح لنا بيده ثم شرع في صعود الدرج بثقة بالغة، وكأن حصوله على لفافة سِتاف قد خلصه من اليأس الذي كان مسيطرا على أفكاره وأفعاله لوقتٍ طويل. انتهت عملية بحثه عما يعتقد أن فيه خلاصه بنجاح. بيَّنت ابتسامته الخبيثة كيف أنه كان يستمتع بتلك اللحظة.. لحظة الانتصار.

تبعه فيلشو وهو يتحرّك للخلف. ظل مصوِّبا مسدسه نحونا إلى أن صعد بعض الدرجات من السلم واختفى. أمسكت بمسدسي، وكنت على وشك أن أتبعهم عندما ألقى فيلشو بأحد مصابيح الزيت التي كانت تنير الدرج، فاصطدم بأرض الغرفة وتهشّم. انسكب الزيت على الأرض، وتناثر لهب الشعلة على أطراف بعض بُسُط الحائط فاشتعلت فيها النار خلال ثوانٍ قليلة، وأخذت تتمايل يمينا ويسارا. قذف مصباحين آخرين في نفس الموضِع فازداد الحريق بشاعة. لحظات وانتشر دخان أسود خانق، وحاصرتنا النيران من كل جانب، كما أحاط الدرج أمامنا غلاف من النيران الملتهبة التي يستحيل اختراقها.

انقبض قلبي.. شعرت أنها النهاية، وفي بضع لحظات ستذوب أجسادنا في جحيم الغرفة.

أسرع فيليبس نحو هولمز وجذبه من كم معطفه وهو يصيح: «ثمّة مخرج سري. سأحتاج مساعدتك يا سيد هولمز. اتبعني أرجوك».

مضى فيليبس إلى الجدار الخلفي، وشرع في سحب البساط الكبير الذي يُغطي الجدار بأكمله. كان البساط مثبتا بإحكام، ولذا فقد أسرعنا لنساعد فيليبس على إزالته.

اشتدّ لظى النار من خلفنا. أمسكت بطرف البساط وسحبته بكل ما أتيت من قوة. أنهارٌ من العرق تصببت من جبيني. تحوّلت الغرفة إلى موقدٍ كبير، اتحدت فيه ألسنة اللهب كي تفتِك بنا. التفتُّ بسرعة فوجدت النار بدأت تنهش جثة السير جورج فافيرشام حتى تفحّمت أجزاء منها. لم أستطع تحمُّل ذلك المنظر المريع فأشحت بوجهي واستكملت عملي.

اتّحد ثلاثتنا وسحبنا البساط في آنٍ واحد، فاستطعنا انتزاعه. وجدنا أمامنا مدخل نفق يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام.

قال فيليبس بصوتٍ عالٍ: «لقد أمر السير جورج بحفر هذا النفق لأنه كان يخشى أن يُحبس في هذه الغرفة. إنه آمن تماما، وسنعبر من خلاله إلى أحد المباني الإضافية بسلام».

«أحييك على هذا التصرّف». قال هولمز، ثم دفع فيليبس نحو النفق، وتبعتهما سريعا قبل أن تصل النيران إلى المدخل.

قطعنا مسافة العشرين ياردة زحفا، أضاءت طريقنا خلالها أشعة ضوءٍ خافتة انبعثت من النيران التي أحاطت بالمدخل. أخذ الضوء يتلاشى شيئا فشيئا مع كثرة الالتواءات حتى حفّنا الظلام الدامس من كل جانبٍ. كانت تجربة في غاية الغرابة. كنا نزحف على أيدينا وأرجلنا في العتمة، لا نشعر بشيء سوى ملمس الأرضية الخشنة من تحتنا، ولا نسمع إلا أصوات لهاثنا. وما زاد من عذابنا ضيق النفق وسقفه المنخفض.

لم ينبس أحدنا بكلمة. استمررنا في الزحف ببطء، ومن خلفنا يتصاعد دخان أسود كثيف، وكأننا داخل مدخنة. بذلنا جهدا أكبر كي نسرع، ولكننا كنا نتوقف بين الحين والآخر حتى يلتقط فيليبس أنفاسه ويستعيد بعضا من طاقته ليواصل الزحف. لم نستغرق في الواقع أكثر من دقيقتين أو ثلاث لكي نصل إلى نهاية النفق، لكن في ذلك الظلام الدامس، شعرت أن دهرا مرّ علينا.

وصلنا إلى مخرج عمودي ينبعث منه ضوء خافت، يتعامد على سلم خشبي مثبت في جدار المخرج. سبقنا هولمز إليه، وبدأ يصعده بخفة. وفي غضون لحظات كان قد وصل إلى بابٍ سري يؤدي إلى مبنى خشبي كبير، ثم مد يده ليساعدنا على دخوله واحدا تلو الآخر.

أسرع هولمز نحو النافذة وأسرعت خلفه، فشاهدنا ملموث وفيلشو يقتربان من الزورق المتبقي. كانا يعتقدان أنهما تخلصا منا، أو هكذا صوّر لهما غرورهما، فلم يجدا داعيا لأن يُسرعا الخطى، ومضيا معا على الشاطئ وكأنهما يتنزّهان في حديقة.

«هيا يا هولمز! إذا أسرعنا الوصول إليهما سـ...».

«إنهما بعيدان للغاية. سيستطيعان الهروب على متن الزورق قبل أن نصل إليهما. كما أنه لم يعد هناك أي زورق نلاحقهما به!». رد هولمز سريعا، ثم

ضرب عرض الحائط بقبضته في غضب.

«وما رأيكما في هذا؟». صاح فيليبس وهو يزيل الغطاء عمّا بدا لي أنه زورق كبير غريب الشكل.

«يا إلهي! ما هذا!». صحت في دهشة. أسرعنا لنلقي نظرة عن قرب.

ابتسم فيليبس، وكأن مغامرتنا الغريبة هذه قد أنعشته وأعادته إلى طبيعته.

قال أخيرا: «هذا القارب نسخة طبق الأصل من قارب الملكة حنت-تاوي الجنائزي».

***

قالت كاتريونا آندروز وهي تمسك بكوب الشاي المُقدّم لها: «شكرا جزيلا، عمّتي إيميليا. إنه حقا لطف منكِ أن تستقبليني لبضعة أيام عندكِ إلى حين عودة أبي من عمله. إنني ممتنة لترحيبك بي رغم حالتي المُزرية هذه، ورغم أنني لم أجلب معي أمتعتي».

«لا داعي للشكر، عزيزتي. ولكنني أرى أن عليكِ الذهاب لطبيبٍ بشأن حالتك العصبية غير المُطمئنة؛ فأنتِ تحتاجين لترياق يساعدكِ على الاسترخاء».

«أوكد لكِ أنني أشعر بتحسُّن الآن يا عمَّتي». ردّت كاتريونا وعلى وجهها ابتسامة فاترة.

أمسكت السيدة المُسِنّة بعدستها، وباتت تتفحّص وجه ابنة أخيها الشاحب، فلاحظت ملامحها المتعبة، وبريق عينيها المنطفئ، كما لاحظت أن ملابسها بالية ومتسخة. ورغم أنها لم تقتنع أن كاتريونا على ما يرام، إلا أنها لم تبدِ أي ملاحظة، وابتسمت بلطفٍ وهي تقدِّم لها الكعك.

***

قال جون فيليبس بعدما استعاد بعضا من قوته: «إن هذا المبنى هو المشغل الخاص للسير جورج، وكان يفخر بهذا القارب أكثر من أي إنجاز قام به. لقد أمضى ما يفوق سنتين في صنعه، مستندا إلى المخطوطات الأصلية التي عثر عليها في مقبرة حنت-تاوي».

أخذت جولة حول القارب..

بلغ طوله حوالي تسعة أو عشرة أقدام، وعرضه أربعة أقدام على حدٍ أقصى، وكان طرفاه المزخرفان مقوّسين مثل شمشَك* فارسيّ ضخم. لم ألحظ اختلافا كبيرا بينه وبين الجندول الإيطالي

غير أنه بدا أقل صلابة وسطحه مرتفع.

«هل أنت متأكد أنه صالح للاستخدام؟». سألت فيليبس.

«للأسف لم تتسنّ لنا فرصة اختباره، لأن السير جورج أراد الانتهاء من طلاء الرموز المنقوشة على جانبي القارب قبل أن نحمله إلى البحيرة». رد فيليبس، مشيرا إلى بعض الرموز التي لم يكتمل طلاؤها

---

* الشمشَك: تعريب لكلمة «جمشك» بالفارسية وتعني الحذاء، وقد ورد ذكر الكلمة في ألف ليلة وليلة في أكثر من موضع.

بعد، ثم أكمل: «ولكن قدماء المصريين لم يواجهوا أي صعوبة أثناء الإبحار بمثل هذه القوارب».

نقر هولمز بقبضته على هيكل السفينة وقال: «هل القارب مصنوع من البردي؟».

«بالطبع». رد رفيقنا الذي استعاد اتزانه وبدا أنه مستمتع بمغامرتنا.

نظر لي هولمز وقال: «هل أنت مستعد لرحلة في البحيرة يا واطسون؟».

حملنا القارب بسهولة واتجهنا إلى الأبواب المزدوجة في الجزء الخلفي من المشغل. لم أدرِ كيف لقاربٍ خفيف لهذه الدرجة أن يطفو على سطح الماء. لاحظ هولمز ملَامح القلق على وجهي، فابتسم وقال: «إنه بالفعل مصنوع من ورق البردي!».

في هذه الأثناء، أسرع فيليبس بحمل أربعة مجاديف من فوق أحد الرفوف المثبتة بالحائط، ثم سبقنا إلى الأبواب ففتحها. مضينا إلى الخارج فالتقت وجوهنا بضوء الشمس من جديد، بعدما كدنا نفقد الأمل في رؤيته. وبينما كنا نسرع نحو المرفأ، رأينا ملموث وفيلشو داخل قاربهما، وقد قطعا مسافة

تقترب من الخمسين ياردة في البحيرة. كان فيلشو متوليا أمر التجديف، ولكن هذا لم يشغله عن الانخراط في الحديث مع صديقه.

لم يلحظا تحرّكاتنا.

قال هولمز مبتسما: «أعتقد أنها ستكون مفاجأة العمر بالنسبة لهما».

لم يتبق لنا سوى أن نُنزل القارب إلى البحيرة. أمسك هولمز بأحد طرفي القارب، بينما أمسك فيليبس بالطرف الآخر، وتعاون الاثنان على رفع هذا القارب الغريب، ثم أنزلاه إلى سطح الماء. لبعض اللحظات، ظل القارب يتمايل يمينا ويسارا، كسكّير يترنّح أثناء مغادرته حانة، ويصطدم بدعامات المرفأ، ثم –بمعجزةٍ ما- استقر القارب في مكانه.

قال فيليبس: «سنستخدم المجاديف الأربعة لندفع القارب للأمام، وسنتعامل معها كأننا على متن زورق عاديّ، لكن الاختلاف الوحيد هو أننا سنضطر لأن نجثو على رُكبنا لنستطيع التجديف، وهذا لضيق القارب».

اتفقت مع فيليبس أن نتولى التجديف، بينما سيقف هولمز عند مقدمة السفينة ممسكا بسلاحه، متأهبا لاستخدامه في حال تأجج الموقف. صعدنا على متن القارب واحدا تلو الآخر، اهتز القارب بقوة، وانغمس في مياه البحيرة، فامتلأ السطح بدوره بالماء. ولكنه طفا بعد ذلك بخفةٍ كالفلين. وعندما صرنا جميعا على متن القارب، صارت المسافة بين الماء والسطح ثلاثة أو أربعة بوصات تقريبا.

أمسكت بالمجدافين واستعددت..

«أتمنى أن تكون رحلتنا سعيدة!». صاح فيليبس ثم شرعنا في التجديف. تمايل القارب قليلا في البدء، ثم ما لبث أن انطلق إلى الأمام بسلاسة لم أتوقعها. فاجأتني سهولة التحرّك بالقارب، فشعرت بثقة لم أعهدها منذ بداية القضية. التفتُّ لألقي نظرة على ذلك المنزل الغريب، فوجدت النيران قد شقت طريقها إلى الطابق السفلي، وباتت النوافذ –التي كانت داكنة من قبل– تحترق وتتوهّج.

لن يصمد المنزل أمام النيران لفترة طويلة. سيتلاشى وستتلاشى معه كنوزه وألغازه الغامضة للأبد. أشحت بنظري عن ذلك المنظر المؤلم. ثمّة أمور أكثر أهمية عليّ الانشغال بها.

لم أكن الوحيد الذي ألقى نظرة على المنزل الذي تأكله النيران، فقد التفت ملموث أيضا ليرى ما تسبب فيه من دمار. كان من الصعب أن أرى تعبيرات وجهه بوضوح، نظرا لبُعد المسافة بيننا، لكنني وجدته يعتدل في جلسته ويلوّح لنا بيده. لقد رآنا أخيرا.

ضحك هولمز بصوتٍ عالٍ، ثم قال في سعادةٍ: «لقد اقتربت جدا يا سيد ملموث.. وسأظل أقترب أكثر».

صاح ملموث مخاطبا فيلشو –الذي كان يتولى التجديف– بكلماتٍ لم أتبيَّنها. في البدء، ذُهِل فيلشو عندما رآنا وظل مصوِّبا نظره نحونا للحظاتٍ، ثم عاد يُجدِّف بكل ما أوتي من قوة. لاحظت أنه –رغم جهوده– لم يكن يتقن التجديف على الإطلاق؛ فكان القارب يهتز ويترنّح بسبب تجديف فيلشو غير المنتظم.

استنتجت أنهما يبعدان عن الساحل بخمسمائة ياردة تقريبا. كنا نقترب منهما بسرعة لم يتوقعاها.

قال هولمز: «أظن أنه من الأفضل أن نصِل قبلهما إلى الساحل، ثم نتهيّأ لاستقبالهما بحفاوة كبيرة».

«يمكننا بالفعل أن نصل قبلهما؛ فسرعة هذا القارب مذهلة. لو كان السير جورج حيّا، لكان حتما سيفخر بهذا الإنجاز». جاء رد فيليبس.

اقتربنا للغاية من قارب ملموث وفيلشو. رأيت ملموث جالسا في مؤخرة القارب، على وجهه ملامح الغضب الشديد، ويصوِّب مسدسه نحونا.

«لا تقترب أكثر!». صاح هولمز.

أطلِقَت رصاصة في الهواء كاد دويّها يفتك بأذني.

ترك فيلشو المجدافين وأمسك بمسدسه، وشرع الاثنان في إطلاق النار نحونا.

أصابت رصاصة أحد جانبي القارب، فاهتزّ هزّة عنيفة، وانغمس نصفه في الماء للحظة، ثم طفا مجددا. انحنيت لألقي نظرة على جانب القارب، فرأيت ثقبا في حجم عملة ذهبية في الجزء السفلي للقارب، ومع تأرجحه يمينا ويسارا، يتسرّب الماء من الثقب إلى الهيكل الداخلي.

«قد لا نصل إلى الساحل إذا أصيب القارب مجددا!». أخبرت رفيقيّ.

انهال علينا وابل أكبر من الرصاص، ولكن لحسن الحظ لم تصطدم أي رصاصة بالقارب.

صاح هولمز: «علينا أن نبادلهما إطلاق النار!».

انحنى بجسده وصوّب مسدسه نحوهما ثم أطلق النار. أصابت الرصاصة كتف فيلشو الأيمن، فصرخ متألما ووقع على جانب القارب. تملك الغضب من ملموث، فصاح بكلماتٍ غير مفهومة وأطلق النار تجاهنا مرّتين متتابعتين. ورغم دويّ الرصاصتين القوي الذي ارتجفت له مياه البحيرة، إلا أن الرصاصتين لم تصيبا القارب، ولا أحدا منا.

لم يتوقف ملموث عند هذا الحد، فأطلق رصاصة ثالثة أحدثت ثقبا آخر في قاربنا. ظننا في البدء أن الضرر لم يكن كبيرا، ولكن لاحظنا بعد ذلك أن القارب صار بطيئا وصعب التحكم. تسرّبت كمية أكبر من الماء إلى القارب وبدأ يغرق تدريجيا.

استطاع فيلشو الوقوف مرة أخرى. وضع يده على كتفه المصاب ثم أطلق النار علينا مجددا. انهال علينا وابل من الرصاص والشتائم في آنٍ واحد. أصيب فيليبس بطلقة في فخذه، فصرخ بصوتٍ عالٍ وكاد يسقط من جانب القارب، لولا أني أفلتُّ المجدافين وجذبته من معطفه بقوة، وألقيت به في منتصف القارب. كان حتما يشعر بدوارٍ أفقده القدرة على الحركة لبعض الوقت.

بادلهما هولمز إطلاق النار، فأصاب ملموث في كتفه الأيسر. تأوّه بشدة، وبدأ يتراجع ببطءٍ إلى الخلف حتى سقط واصطدم رأسه بمقدمة القارب. حاول فيلشو يائسا أن يصل إلى صديقه ليساعده، ولكنه فقد توازنه وسقط من على متن القارب. ظل يصرخ مذعورا، يحاول التعلق بأي شيء ينقذه من الغرق. حركاته وصرخاته بيّنت أنه لا يستطيع السباحة مطلقا. صارع ملموث ألمه، ووقف على قدميه مجددا، ثم انحنى على جانب القارب ومدّ يده إلى صديقه، لكن فيلشو لم يستطع الإمساك بها. التقط ملموث أحد المجدافين ومدّه إلى فيلشو كي يستطيع رفعه على متن القارب ثانية. لم تتعدّ المسافة بينهم بضعة أقدام قليلة، لكن حالة الذعر الشديد التي سيطرت على فيلشو أفقدته القدرة على التركيز، ولم يشغله شيء سوى إبقاء رأسه فوق سطح الماء لأطول فترة ممكنة.

ولكن رأسه انغمس في مياه البحيرة..

وبينما كنا نراقب هذا المشهد المؤلم، استمرّ قاربنا في الغرق حتى امتلأ سطحه بالماء.

لم يلتفت لنا سيباستيان ملموث، فتركيزه انصبّ على صديقه الذي كان يغرق. ظهر رأس فيلشو ثانية بعدما اختفى في الماء. نادى ملموث عليه وصاح آمرا إياه بأن يتعلق بالمجداف، ولكن فيلشو لم يفعل. ازدادت حالة الذعر المسيطرة عليه شدة حتى خارت قواه العقلية. لم يفعل شيئا سوى الصراخ كالطفل الرضيع. وبعد ثوانٍ غرق فيلشو، صائحا، ولم يظهر مرة أخرى.

انفجر ملموث بالبكاء والعويل، ثم قفز في الماء محاولا البحث عن صديقه، لكنه لم يجده. استمرّ في البحث يائسا، ينادي على صديقه الذي لا يجيب.

أعماق أولسووتر الباردة التهمت فيلشو للأبد.

غمر الماء وجه فيليبس فاستعاد وعيه. صارعت ثقل القارب الذي غرق نصفه بالفعل، واستمررت في التجديف بكل ما تبقى من قوتي. اعتدل فيليبس، ونفض الماء عن رأسه. ورغم الألم الموجِع الذي شعر به، إلا أنه أمسك مجدافيه بشجاعة ليستكمل عمله.

لكن فات الأوان.

مياه أولسووتر بدأت تبتلع القارب بأكمله.

«اقفزا الآن!». صاح هولمز ثم قفز في الماء.

أمسكت بذراع فيليبس وقفزنا معا لتحتضننا مياه البحيرة الباردة التي ارتجف لها جسدي. شعرت بضيقٍ في التنفس.. انزلق رأسي تحت الماء ثم طفا مجددا، فسبح هولمز نحوي ليساعدني. استطعنا في النهاية أن نصل إلى الساحل بعدما سبحنا مسافة تقدر بخمسين ياردة.

على الرغم من المجهود الذي بذلناه في جذب فيليبس إلى الساحل، والبرد القارس الذي تخلل ملابسنا المغمورة بالماء، إلا أن حالتنا لم تكن سيئة مثل فيليبس. لم يفقد وعيه لكن دوارا شديدا قد أصابه. أجلسناه وفحصت رجله المصابة، فوجدت أن الجرح سطحي ولن يدوم ضرره. وعندما تأكدت، تركته

يستريح ومضيت نحو هولمز الذي وقف عند حافة الساحل ينظر إلى قارب ملموث.

كفّ ملموث عن بحثه وصعد مرة أخرى على متن القارب. وقف مصوبا نظره نحونا لبعض الوقت، ثم شرع في التجديف.

«ماذا يفعل؟». سألت هولمز عندما أدركت أنه يسبح بعيدا عن الساحل، متجها إلى الجزيرة.

-١٦-

أعظم مغامرة على الإطلاق

لم يجب هولمز عن سؤالي، واستمرّ يحدق في القارب وعلى وجهه ملامح الغضب.

«ماذا يفعل؟». رددت سؤالي وأنا أشاهد قارب ملموث يسرع في اتجاه الجزيرة.

«لا أدري. لقد فشلت خطته ولذا فإنه لا يفكر بشكل منطقي. علينا أن نقبض عليه».

أسرعنا إلى رصيف المرفأ وصعدنا على متن أحد الزوارق الخضراء المتبقية، وتأهبنا لمطاردة عدونا سيباستيان ملموث.

رأيت جزيرة جريب تتلألأ كماسةٍ في الأفق، ومن فوقها فرّت سحب الظهيرة هاربة من أصابع الأدخنة السوداء التي تحاول خنقها. ألسنة اللهب المتوهجة ظلت تزداد شراسة، حتى صارت الجزيرة كجحيمٍ ثائرٍ لا يهدأ. لا شك أن النيران ستلتهم ما تبقى من مبانٍ حول منزل جريب، وحتى مياه البحيرة التي تلتف حول خصر الجزيرة ستحترق! أخبرت هولمز أن الجزيرة لن تكون ملاذا لملموث، فأومأ برأسه وقال:

«إنه يعلم تمام العلم أن ليس ثمة وسيلة للهرب أو مكان للاختباء. ولذا، فأخشى أنه قد يقوم بتصرف طائش لا يحمد عقباه».

نظرت أمامنا، فلمحت قارب ملموث ثابتا لا يتحرّك. من الواضح أن ملموث توقف عن التجديف بعدما وصل إلى منتصف البحيرة.

كان ينتظرنا..

بهدوءٍ وثبات، استمرّ هولمز في التجديف حتى صارت المسافة بين قاربنا وقارب ملموث بضعة أمتار قليلة. وقف الأخير عند رؤيتنا. وجهه شاحب ويبدو الإعياء الشديد على ملامحه. لم يعُد حسن المظهر كما كان، واختفت ابتسامة الثقة التي رأيتها على وجهه من قبل أكثر من مرة. لم أرَ سوى الغضب مشتعلا في عينيه.

كان يحمل الحقيبة الجلدية التي بداخلها لفافة الموتى في يدٍ، وفي اليد الأخرى يمسك بمسدسه. معطفه ملطخ بالدماء من أثر الرصاصة التي أصابته، ولكنه لم يبدُ عليه أنه يكترث لأمرها.

قال ملموث بنبرةٍ رتيبة: «لا تقتربا أكثر، أيها السيدان. أرجوكما حافظا على تلك المسافة حتى نستطيع التحدث.. بلطفٍ». ثم صوّب مسدسه نحو صديقي.

وقف هولمز في مقدمة الزورق وقال: «أظن أن هذا هو الوقت المناسب للتفكير المنطقي. سلم نفسك الآن وأعطني لفافة الموتى. ليس لديك خيارٌ آخر».

لبث ملموث مليا، ثم ابتسم وقال: «التفكير المنطقي.. نعم، لطالما كان هذا مصدر قوتك، ومصدر ضعفك في الوقت ذاته يا سيد هولمز! إن المنطق يحجب كل ما هو غير محتمل أو مستحيل.. قد يعينك على حل الجرائم، لكنه لن ينفعك في حل ألغاز الحياة الكبرى. لا يسمح المنطق للمرء أن يحلم ويبحث خارج نطاق ما هو متعارف عليه. يا ليتني استجبت لنصائح من حذروني من خطورة تورطك في هذه القضية. يا ليتني تركتك وشأنك!

ثم أكمل مستطردا: «أن يعمل لدي رجل من أعظم من طبّقوا القانون والنظام، دون أن يعلم، لهي فكرة ساحرة لم أستطع مقاومتها.. المحقق الاستشاري الشهير، شيرلوك هولمز، يحل لغزا لصالح المجرم، يا له من انقلاب غير متوقع في الموازين. ولكن عليّ أن أعترف بأن خيالي قد تسبب في تدميري. بذكائك الخارق في التحقيق اكتشفت أنني خدعتك واستغللتك، فحطمت بذلك جميع خططي وأحلامي وتطلعاتي. كل ذلك بسبب (المنطق) الملعون الذي تعتمد عليه! وبسببك أيضا غرق الشخص الوحيد الذي أحببته في أعماق هذه البحيرة».

رد هولمز قائلا: «لقد غرق بسببك أنت يا ملموث؛ فعندما تبدأ لعبة القتل، لا بد أن تنتظر دورك لتدفع الثمن».

«بالطبع سأدفع الثمن، ولكن عليّ أولا أن أنجز مهمّة».

حرّك ملموث ذراعه حركة دائرية سريعة، وأفلت الحقيبة من يده، فطارت في الهواء ثم اصطدمت بماء البحيرة وغرقت.

ضحك بسخريةٍ ثم قال: «لقد أعدت لفافة الموتى إلى مكانها: في غياهب الظلمات».

«يا له من تصرف أنانيٍ حقا». علق هولمز بهدوء.

«أنت محق، فقد سمحت لنفسي أن أكون أنانيا في هذه اللحظة.. اللحظة التي أستعد فيها لخوض أعظم مغامرة على الإطلاق».

ببطءٍ وهدوء تام، وضع ملموث مسدسه في فمه وضغط على الزناد.

كسر صوت الرصاصة المدوي حاجز الصمت الذي خيّم على البحيرة.

الخاتمة

ابتسم المُرتهن أرتشي وودكوك عندما أقبلت عليه تلك الشابة.

رآها واقفة في ترددٍ على الرصيف خارج المحل لعشر دقائق كاملة. راهن أرتشي نفسه أنها ستمتلك الجرأة على دخول المحل، وها هي الآن تقف أمامه.

لطالما قابل نساءً من هذا النوع، جميعهن من الطبقة المتوسطة، وقد حدث شيء ما في حياتهن سبب لهن أزمة مادية جسيمة. ورغم كرههن للذهاب لأي مُرتهن، إلا أنه أضحى أمرا ضروريا. ففقدانهن لأحد ممتلكاتهن لم يكن أمرا هينا، فهذا يبين كيف أنهن قد وقعن في فخ الفقر. كما أنهن عادة ما يراهنّ بأشياء ذات قيمة كخواتم زيجاتهن، أو قلادات ثمينة، أو إطارات صور فضية. تساءل أرتشي وودكوك عما سترهن عنده هذه الشابة التي ترتدي فستانا أخضر مهترئا.

أسند ذراعيه على منضدته ثم قال بلطفٍ مبالغ فيه: «كيف لي أن أساعدكِ يا عزيزتي؟».

ردت الشابة بنبرةٍ صارمة: «لقد رأيت سلاحا على أحد هذه الرفوف أريد شراءه».

***

فارق السرور وجه المفتش هاردكاسل.

نظر إلى شيرلوك هولمز بوجهٍ متجهم وعينين تشتعلان بالغضب، وقال متذمرا: «كان عليك أن تخبرني!».

زارنا هاردكاسل في شارع بيكر بعد يومين من انتهاء مغامرتنا في جزيرة جريب. لم يستطع كبح غيظه، وهذا لأنه لم يكن له دورٌ فعّال في القضية، وبالتالي فلن يُنسب له أي فضل.

لقد رأى هولمز أن القضية انتهت بنتيجة مُرضية نسبيا. فقد استطاع رجال شرطة كامبرلاند أن يخرجوا الجثتين من أعماق البحيرة، ثم أرسلوهما إلى المشرحة في سكوتلاند يارد. وبهذا فقد وفّر هولمز على هاردكاسل عناء مطاردة المجرمين وقتلهما. كما نصح هولمز رجال الشرطة بتفتيش منزل

ملموث، فعثروا هناك على بردية حنت-تاوي التي سُرقت من المتحف البريطاني، وأعادوها إلى السير تشارلز بارجيتر الذي ابتهج عندما صارت بين يديه مرة أخرى.

«ولكنك فقدت لفافة الموتى!».

«ليس تماما، فهي الآن قابعة في أعماق أولسووتر، ولكنني أظن أننا لن نستطيع استعادتها».

«بالضبط.. لن نستطيع استعادتها».

«إنه حقا أمر يسرّني».

«ماذا!». صاح هاردكاسل وقد احمرّ وجهه من شدة الغضب.

«إن لفافة الموتى، التي ألفها ذلك الكاهن الشرير، ليست سوى لعنة تصيب كل من يسعون للحصول عليها.. إنها حيلة خدع سِتاف بها ذوي الأنفس الضالة ممن يظنون أنهم يستطيعون التغلب على الموت. أرى أنه من الأفضل أن تبقى كما هي، غارقة في أعماق البحيرة».

«أنت محق، سيد هولمز، ولكن...».

«ليس ثمّة داعٍ لأن تكون يائسا هكذا يا هاردكاسل، فجُثتا المجرمين اللذين طاردناهما ترقدان الآن في المشرحة، كما أن بردية حنت-تاوي عادت بسلامٍ إلى المتحف البريطاني».

ظل نظر المفتش مصوّبا نحو هولمز للحظة، ثم ارتسمت ابتسامة فاترة على شفتيه وقال مستسلما: «أظن أنك على حق.. وعليّ أن أعترف أنني أدين لك بالشكر على المجهود الذي بذلته في هذه القضية».

علا صوت هولمز في حماسٍ وهو يقول: «هذا حقا لطف منك. نحن مستعدان دائما لإمداد العون لسكوتلاند يارد في أي وقت».

«ولكن للأسف لا يمكن أن تقفَل القضية قبل أن نعثر على القطعة المفقودة من الأحجية».

«ترى ماذا تقصد؟».

«الآنسة كاتريونا آندروز».

***

تلقيت الرسالة في وقتٍ مبكر من تلك الليلة.

كنا قد انتهينا من وجبةٍ خاصة أعدّتها لنا السيدة هدسون، وجلسنا نسترخي بالقرب من الموقد. لطالما شعرت السيدة هدسون أنه من واجبها أن تعد لنا وجبة فاخرة فور عودتنا من أي عملٍ أبعدنا عن المنزل لأكثر من يوم، وكأنها تعلم أننا لن نتناول قدرا كافيا من الطعام بينما نحن منشغلون في العمل خارجا. وكالعادة لم يتناول هولمز سوى كمية قليلة من الطعام، أما أنا فالتهمت وجبتي كاملة ولم أترك منها شيئا.

مسحت فمي بمنديلٍ ثم وضعته على الطاولة وقلت مازحا: «لا بد أن نكثر من الخروج».

«أظن أنك لن تحب أن يزيد وزنك. أريدك أن تحافظ على رشاقتك؛ فإذا قضيت أسبوعا واحدا تتناول مثل هذا النوع من الوجبات، فلن تستطيع الركض خلف المجرمين».

انتهينا من شرب ما تبقى من زجاجة النبيذ، وبدأنا نتحدث عن مغامرتنا الأخيرة وتبعاتها.

قال هولمز: «إنه لمن المحزن أن يرتكب شخصان بمكانة السير أليستير آندروز وابنته خطأ فادحا كهذا. لقد أعمى الطمع أعينهما.. وكما يقول هاملت:

فهؤلاء الأفراد

إذ يحملون، كما قلت، طابع نقص واحد

ألبستهم إياه الطبيعة أو أنزله بهم سوء الطالع،

مهما تنقَ فضائلهم الأخرى

ومهما يبلغ عددها، تفسد في مجموعها الكلي

من جرّاء ذلك العيب*.

«هل تظن أن هاردكاسل سيستطيع إلقاء القبض على كاتريونا؟».

«نعم، فهي ليست مجرمة متمرسة، كما أنها لن تجد مكانا لتختبئ فيه للأبد. أنا متأكد أنها ستعود للسجن في غضون شهر أو ربما أقل. هذا أمرٌ حتمي للأسف».

«أظن أنك تشفق عليها».

زم هولمز شفتيه، ثم تنهّد وقال: «أجل.. أظن ذلك يا واطسون».

سمعنا طرقا خفيفا على الباب، ثم انفتح وإذ بالسيدة هدسون

---

* من مسرحية «هاملت: أمير الدنمارك» للكاتب الإنجليزي الأشهر وليم شكسبير، ترجمة وتقديم جبرا إبراهيم جبرا. وهذا المقتطف من الفصل الأول – المشهد الرابع، صفحة ٥٥ في الطبعة الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بلبنان.

تدخل الغرفة وتقول لي: «جاءتك رسالة يا دكتور واطسون، سلمها لي شاب صغير حالا».

«رسالة لي؟». قلت متعجبا. أمسكت بالوريقة وقرأتها ثم قلت: «إنها من ثارستون، صديقي من نادي البلياردو، يقول إنه يريدني أن أذهب إلى النادي الليلة كي نلعب مباراة مهمة للغاية. يا للغموض».

«أنصحك بالذهاب يا واطسون. عليك أن ترفه عن نفسك لتستريح من مشقة الأيام السابقة. كما أنصحك أن (تسير) إلى النادي كي تحافظ على رشاقتك، خاصة بعدما تناولت وجبة السيدة هدسون الدسمة».

ضحكت السيدة هدسون وبدأت تنظف الطاولة.

«أظن أنك محق يا هولمز، قد أستريح بالفعل. حسنا سأذهب».

***

غادرت المنزل الساعة الثامنة مساءً، تاركا هولمز في مكتبه يتفحّص أوراق بعض القضايا القديمة.

لكنني لم أدرِ أن كان ثمّة من يراقب رحيلي.

كان الجو دافئا في تلك الليلة، فاتبعت نصيحة هولمز وقررت أن أسير إلى النادي. وصلت هناك بعد عشرين دقيقة تقريبا، وسألت الحارس إذا ما كان قد رأى ثارستون، فأخبرني أن صديقي لم يأتِ منذ عدة أيام، ولكن شخصا آخر، وهو ليس أحد الأعضاء، قد ترك لي رسالة.

أعطاني الحارس الظرف المكتوب عليه اسمي بخطٍ سلسٍ تعرّفت عليه من النظرة الأولى.

كانت هذه الرسالة من شيرلوك هولمز!

***

دقت الساعة الثامنة والربع عندما فتِح باب غرفة الجلوس في 221 ب شارع بيكر بهدوءٍ، ودخل منه شبح ظَلّ واقفا عند المدخل للحظات. كان هولمز قد خفّض أضواء مصابيح الغرفة، وانشغل في قراءة مجموعة من الأوراق على ضوء مصباح زيتي وضعه على طاولة قريبة منه.

بقيَ الشبح المُظلم يراقب هولمز الذي كان غارقا في قراءاته لدرجة لم تجعله يلحظ وصول زائر لغرفته. لكن بعد لحظات، ودون أن ينظر إلى الشبح، قال هولمز بلطفٍ: «أغلقي الباب يا عزيزتي واجلسي بجانب الموقد».

بتأنٍ وهدوء تام، نفّذت كاتريونا آندروز ما طلِب منها.

نحّى هولمز أوراقه جانبا وأخذ يحدِّق في وجه تلك الشابة الشاحب. لاحظ أنها كانت تجلس على حافة مقعدها، فخاطبها بهدوءٍ قائلا: «كنت أنتظركِ. لقد مررتِ بالباب ثلاث مرات تقريبا، وفي كل مرة كنتِ تنوين طرقه، لكن من الواضح أنكِ فضّلتِ المجيء متلفحة برداء الظلام، وفي غياب رفيقي. لا شك أنكِ من بعثِ بتلك الرسالة لواطسون كي...».

قاطعته كاتريونا قائلة: «أجل، أجل.. لست مهتمة بسماع استنتاجاتك. لقد جئت لأمرٍ آخر».

«الانتقام».

أومأت برأسها، ثم أخرجت من حقيبة يدها مسدسا صوّبته نحو هولمز وقالت: «لقد جئت لأقتلك».

«أظن أن هذه العداوة ليست في محلها. لا بد أنكِ تظنين أنني من تسببت في موت أبيكِ!».

«ليس لدي أدنى شك في هذا».

«وهل هذا معقول؟ ألا تلومين نفسكِ؟».

تفاجأت كاتريونا ولم تستطع الرد.

«أما كان عليكِ أن تمنعي أباكِ من التورط مع سيباستيان ملموث مِن الأساس؟ لقد كان السير أليستير عالما ذا مكانة رفيعة بين الناس، ألَم تعتقدي أنه -بتورطه مع ذلك النذل- يُغامر بسمعته، وحريته، وحتى حياته؟ قد يكون حلمه باكتشاف لفافة الموتى استحوذ على عقله وتفكيره لدرجة لم تجعله يتخذ القرار الصائب، لكن ماذا عنكِ؟ ما منعكِ عن التفكير بعقلانية؟ لم يكن لديكِ نفس الشغف، وكنتِ تعرفين حجم المخاطر الذي سيتعرّض لها ولم تحذريه!».

أحس هولمز بصوته يعلو ويحتد، فسكت برهة ثم أضاف بنبرة أكثر هدوءا: «ولم تمنعيه».

«لقد حاولت ولكنه لم يستمع إليّ. كان غارقا في أحلامه حتى كاد ينسى الواقع.. كان كمَن يبحث عن دواءٍ لداءٍ يكاد يفتك به. رأى أبي أن ملموث هو أمله الوحيد، فلم أستطع أن أسلبه ذلك الأمل، لأنني إن فعلت، كان سيطردني خارج حياته للأبد، وأنا ما كنت لأتحمل أمرا عصيبا كهذا. لقد أحببته من كل قلبي».

هزّت رأسها في غضبٍ وقالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع: «ولكنك لن تفهم شيئا مثل الحب؛ لأن الحب لا يُمكن تحليله. ترى ما الذي تعرفه عن عالمنا، وعن البشر وأحاسيسهم؟ أنت تجلس دائما هنا في هذه الغرفة الجافة المُتربة، تعمل على حل ألغازٍ ووضع نظريات دون أن تدرك حجم العذاب والمعاناة اللذين يملآن قضاياك. جميع الناس ليسوا إلا قطع أحجية بالنسبة لك. يهمك فقط أن تحل الألغاز الغامضة ولا تعبأ بما تخلفه أفعالك من تأثير على الناس».

ذهِل هولمز من ذلك الهجوم الحاد، فلبث مليا قبل أن يرد قائلا: «قد تكونين على حق، فأنا لا أعلم الكثير عن العواطف، وعن الحب الذي لا أعرف له منطقا من الأساس. لكنني أتفهّم أن شعورك بالذنب يُثقل قلبكِ، ولذا فأنتِ تحاولين أن تلقي اللوم عليّ، ولكن هذا لن يجدي نفعا؛ فطبيعتكِ الصادقة تأبى أن تقبل بهذا. أنا محقق يا عزيزتي، مهمتي أن أطارد المجرمين. ولقد تورطتِ مع أبيكِ في أنشطة إجرامية، فطاردتكما. لماذا تلومينني إذا؟ إن اللوم كله عليكما. لكن إذا كان أبوكِ قد رفض الاستماع لنصائحكِ حقا، فاللوم عليه وحده».

ضحكت الشابة بصوتٍ عالٍ، ووقفت فجأة وتراجعت بعض الخطوات نحو الباب ثم قالت: «كلامك مقنع ومعقول كاستنتاجاتك يا سيد هولمز. ولكن كما قلت، ليس ثمّة ما يجمع بين المنطق والمشاعر. ولذا، فلن يمنعني شيء عن قتلك».

صوّبت مسدسها نحو هولمز واستعدت لتطلق النار.

***

قرأت رسالة هولمز وأنا في عجلةٍ من أمري، وخرجت أعدو من النادي. أوقفت عربة وأمرت الحوذيّ أن يتجه بسرعة البرق إلى 221 ب شارع بيكر.

***

حافظ هولمز على هدوئه رغم أن مسدس كاتريونا آندروز كان مصوبا نحو قلبه.

قال: «إن قتلي لن يحل شيئا. أريدك أن تتخيّلي ما قد يحدث بعد موتي. لن تجدي ملاذا آمنا تعودين إليه، وسيقبض عليكِ رجال الشرطة وستعودين إلى السجن مرة أخرى، ولكن ستضاف إليكِ تهمة القتل العمد. هل سيُعيد هذا أباكِ إلى الحياة؟ هل ستتفهّم الشرطة أنكِ أردتِ الانتقام؟ يجب أن تتخلي عن هذه الخطة التي لن تجلب لكِ سوى المزيد من المتاعب».

ثم أكمل: «ضعي سلاحكِ جانبا، وسلمي نفسكِ، وواجهي ما تستحقين من عقوبة بشجاعةٍ تجعل أباكِ فخورا بكِ. ثم ابدئي حياة جديدة وتناسي كل ما مضى. هذا أفضل خيار لديكِ، وأنا متأكد أن لو كان أبوكِ على قيد الحياة، لكان سيعطيكِ النصيحة ذاتها».

اقتربت كاتريونا من هولمز، تتصارع بداخلها مشاعر مختلفة، ارتعشت يدها التي تحمل المسدس فأخفضتها. لكن عادت نيران الغضب تشتعل في عينيها بعد لحظات، وصوّبت مسدسها نحو هولمز مجددا.

لكنها هذه المرة سحبت زلاقة مسدسها، فتردد الصوت في أركان الغرفة.

***

صعدت الدرج بأقصى سرعة لدي. سمعت صوت امرأة غاضبة قادما من غرفة الجلوس.

فتحت الباب خلسة وتسللت إلى الداخل.

***

وضعت كاتريونا آندروز إصبعها على الزناد وقالت: «لا أهتم بما سيحدث فيما بعد، سأكون مسرورة بأن أثقب قلب شيرلوك هولمز برصاصة من سلاحي».

ابتسم هولمز وهو ينظر خلف الشابة إلى الباب. علا صوته قائلا: «صديقي واطسون، يا له من توقيت مثالي!».

أربكها صوت هولمز الذي ارتجفت له الغرفة بأكملها. انتهزت الفرصة وانقضضت عليها كما ينقض الصقر على فريسته، وطرحتها أرضا. سقط المسدس من يدها فأطلِقت منه رصاصة، بفعل اصطدامه القوي بالأرض، استقرت في سقف الغرفة.

***

تنهّد هولمز وهو يصب لنا كأسين كبيرتين من البراندي.

«أظن أننا نستحق مكافأة بعد مغامرة هذه الليلة». قال بينما يعطيني كأسا، ويجلس أمامي بجوار الموقد.

مرّت ساعتان على وصولي للغرفة، اضطررنا خلالها أن نشرح للسيدة هدسون الغاضبة سبب إطلاق النار الذي سمعته. كما أن هاردكاسل جاء مع أفراد من الشرطة ليقبضوا على كاتريونا آندروز ويعيدوها إلى السجن.

لحسن الحظ لم تحاول كاتريونا المقاومة، وذهبت معهم في هدوء. لم يخبر هولمز الشرطيين عن محاولتها لقتله، كما أنه أخفى سلاحها عن الأنظار.

أخذت رشفة من كأسي وقلت بنبرةٍ حادة: «عليّ الاعتراف بأنني منزعج منك يا هولمز».

بدا أنه تفاجأ.

«لماذا يا صديقي العزيز؟».

«لأنك لم تثق بي منذ البداية. كنت تعلم أن كاتريونا ستأتيك الليلة، وأن حياتك مهددة بالخطر».

«بالطبع كنت أعلم. وكنت أعرف أيضا أنها من كتبت الرسالة التي ظننتَ أن ثارستون بعثها لك. أرادت كاتريونا أن تبعدك تماما عن المنزل كي تواجهني وحدي، لأنها لن تجرؤ على فعل شيء وأنت معي. كان يجب أن أبقى وحيدا تماما في الغرفة، حتى لا تشعر أن ثمة فخا ستقع فيه. كما أنني لم أرِد أن أعرض حياتك للخطر».

«لكنك كتبت لي رسالة تشرح فيها كل شيء!».

أومأ هولمز برأسه بثقة.

«ماذا لو لم أصل في الوقت المناسب؟».

«كنت سأطيل معها الحديث. لكنني أثق تمام الثقة في نشاطك وسرعة بديهتك».

صِحت وقد ازداد غضبي: «لو كنت تأخرت دقيقة واحدة، لوجدتك جثة هامدة! هل فكّرت في ما ستؤول إليه حالي عندئذٍ؟ كنتَ ستموت ضحية غرورك وثقتك الزائدة عن اللازم، وكنت سأظل أنا أعاني من تأنيب الضمير. إنك لا تفكر في أي شيء غير نفسك».

انحنى هولمز برأسه وظل يحدق في كأسه لبعض اللحظات، ثم نظر في عينيّ وقال: «لست أول من يُبدي هذه الملاحظة اليوم. أعتذر لك يا واطسون، فأنت محق أنني لم أفكر في هذه الاحتمالية».

ابتسم ثم أكمل مستطردا: «إنك لم تخذِلني أبدا، ولهذا أعتمد عليك دائما».

رسمت كلماته ابتسامة على وجهي لم أستطع كبحها، فقلت: «حسنا، دع ما مضى جانبا، ولكن عِدني ألا تتصرّف بمثل هذا الاستهتار من الآن فصاعدا، وتذكر دائما أن تدرجني في خططك».

«سأحاول فعل هذا».

جلسنا في صمتٍ لبعض الوقت.

لا أنكر أن كلامه أسعدني، لكنني أعرف جيدا أن طريقته لن تتغيّر في المستقبل. فتفكير هولمز المستقل هو نقطة قوته وضعفه في نفس الوقت.. إنه جزء لا يتجزأ من شخصيته، ولكي يتغيّر، فيجب أن تتغيّر شخصية هولمز بدورها، وهذا ما لا أريده أن يحدث.

قطعت صمتنا سائلا هولمز: «ترى ما هو مصير كاتريونا آندروز؟».

«إذا عمل محامٍ جيد على القضية، ستحظى بحكمٍ مخفف ولن تمكث طويلا في السجن. ثم بعدما تتغلب على حزنها لوفاة أبيها، ستبدأ حياة جديدة كأي امرأة قوية».

«إذا صح ما تقوله، فستكون هي الوحيدة التي نجت بسلام من هذه القضية المُحزنة».

«بالطبع. فجميعهم سعوا وراء حلم التغلب على الموت، حتى أتاهم حاصد الأرواح بمنجله، فاستسلموا له. إن الحياة، يا واطسون، مليئة بما يكفي من التحديات والملذات. ولذا فليس ثمّة داعٍ للسعي وراء حل لغزٍ عويصٍ كهذا. فالموت آتٍ لا محالة».

أنهى هولمز كلامه قائلا: «لكل شيء زمان ولكل أمر تحت السماوات وقت. للولادة وقت وللموت وقت»*.

ثم نظر إلى نيران الموقد المتوهجة.

---

* سفر الجامعة ٣:١



كيان للنشر والتوزيع

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

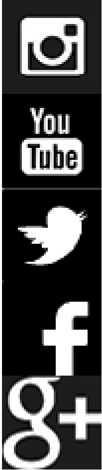
هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 /01001872290

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية

يمكنكم متابعتنا على الروابط التالية:





Kayanpublishing